الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

دراسة بعنوان

الاحتفالات في عصر المماليك

(٦٤٨- ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠- ١٥١٦ م)

رسالة جامعية أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إشراف

الأستاذ الدكتور جباغ قابلو

إعداد الطالب

نبيل جميل قرحيلي

١٤٣١هـ /٢٠١٠م

الإهداء

إلى من يمنحني الأمل في المصاعب والملمات.....فأرى فيهم السند والعون.....

أبي – أمي

إلى جسور تواصلي مع الحياة.....

إخوتي

إلى خيمة الحنان.....وربيع حياتي.....إليك أنت شيئاً من الثمر

زوجتي

إلى من أرى ضوء الشمس من خلالهم في دروب الظلمات.....

إنانا – هادي

إلى من علمني أن الطموح لاينتهي.....

بطاقة شكر

إلى أستاذيّ الفاضل .....أسجي عظيم شكري وتقديري..... عرفاناً

بأستاذيته وعلمه وخلقه..... واعتزازي بإشرافه على هذه الرسالة....

الأستاذ المشرف

المحتوى

الصفحة

الإهداء ٢

بطاقة شكر ٣

المحتوى ٤

رموز الرسالة ٩

المقدمة ١٠

١ –أسباب اختيار البحث وأهميته ١٠

٢– إشكالية البحث وأهدافه ١٢

٣– الصعوبات ١٣

٤– المنهج في البحث ١٤

٥– دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع ١٦

المدخل: لمحة تاريخية عن المماليك ٢٧

مقدمة ٢٨

أولاً– أصل المماليك ٢٨

١– المماليك البحرية وأهم ملوكهم ٣٢

٢– المماليك البرجية وأهم ملوكهم ٣٦

ثانياً– موظفو البلاط المملوكي ٣٨

ثالثاً– الحياة الاقتصادية ٤٠

١– الزراعة ٤٠

٢– الصناعة ٤٠

٣– التجارة ٤٠

رابعاً– الحياة الاجتماعية ٤١

خامساً– الحركة العلمية ٤٢

سادساً– انهيار دولة المماليك ٤٣

١– العوامل الداخلية ٤٣

٢– العوامل الخارجية ٤٤

الفصل الأول– الاحتفالات الدينية (الأعياد) ٥٠

أولاً- الأعياد الشرعية..... ٥١
١- ليالي رمضان..... ٥١
٢- عيد الفطر..... ٥٤
٣- عيد الأضحى..... ٥٥
٤- موكب عيدي الفطر والأضحى..... ٥٦
آ- هيئة موكب العيدين..... ٥٧
ب- سماط العيد..... ٥٩
ج- خلع العيد..... ٥٩
ثانياً- الاحتفالات غير الشرعية..... ٦٠
١. إحياء ليلة رأس السنة الهجرية..... ٦٠
٢. إحياء الموالد..... ٦١
٣. زيارة القبور والأولياء الصالحين..... ٦٣
٤. ليالي الوقود..... ٦٤
أ- ليلة أول شهر رجب..... ٦٤
ب- ليلة الإسراء والمعراج..... ٦٤
ت- ليلة النصف من شعبان..... ٦٥
٥. موقف المماليك من احتفالات الشيعة..... ٦٥
٦. محمل الحج السلطاني..... ٦٦
آ- استحداث المحمل..... ٦٦
ب- أسباب استحداث المحمل..... ٦٧
ج- دوران المحمل..... ٦٨
د- خروج المحمل..... ٦٩
هـ- عادات المحمل..... ٧١
و- عودة الحجاج..... ٧١
ثالثاً- احتفالات طوائف المجتمع..... ٧٣
١- أعياد النصارى..... ٧٣
آ- الأعياد الكبار..... ٧٣
❖ عيد البشارة..... ٧٣
❖ عيد الزيتونة..... ٧٣

❖ عيد الفصح..... ٧٤
❖ عيد خميس الأربعين..... ٧٤
❖ عيد الخميس..... ٧٤
❖ عيد الميلاد..... ٧٤
❖ عيد الغطاس..... ٧٤
ب- الأعياد الصغار..... ٧٥
❖ عيد الختان..... ٧٥
❖ عيد الأربعين..... ٧٥
❖ عيد خميس العهد..... ٧٥
❖ عيد سبت النور..... ٧٥
❖ عيد حد الحدود..... ٧٦
❖ عيد التجلي..... ٧٦
❖ عيد الصليب..... ٧٦
ً٢- أعياد اليهود..... ٧٦
آ- الأعياد الشرعية..... ٧٦
❖ عيد رأس السنة الهجرية ٧٦
❖ عيد صوماريا..... ٧٧
❖ عيد الظلمة..... ٧٧
❖ عيد الفطير..... ٧٧
❖ عيد الأسابيع..... ٧٨
ب – الأعياد المحدثة..... ٧٨
❖ عيد الفوز..... ٧٨
❖ عيد الحنكة..... ٧٨
الفصل الثاني : الاحتفالات المملوكية والسلطانية..... ٨٠
ً١- إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة وتولية الخليفة..... ٨١
ً٢- الاحتفال بتولية السلطان المملوكي..... ٨٦
ً٣- الاحتفال بترقية المماليك..... ٩٣
ثانياً- الاحتفالات السلطانية..... ٩٨
ً١- الاحتفال بمعافاة السلطان من المرض..... ١٠٣

أ- الاحتفالات الشعبية..... ١٠٣
ب- الاحتفالات الخاصة..... ١٠٤
٢-ً ركوب السلطان لميدان اللعب..... ١٠٤
ًّ٣- الاحتفال بخروج السلطان إلى الصيد والنزهة..... ١٠٧
الفصل الثالث: الأعياد المصرية..... ١١٣
أولا- الأعياد المورثة..... ١١٤
١- وفاء النيل وكسر الخليج..... ١١٤
أ- وفاء النيل ١١٤
ب- الاحتفال بكسر الخليج..... ١١٧
ت- موكب كسر الخليج عند وفاء النيل..... ١٢٠
٢- عيد الشهيد..... ١٢٢
ثانياً- الأعياد الفارسية..... ١٢٥
١. عيد النوروز..... ١٢٥
أ- عادات النوروز..... ١٢٧
ب- موقف المماليك من النوروز..... ١٢٨
٢. عيد المهرجان..... ١٢٩
ثالثاً – الاحتفالات الخاصة..... ١٣٠
الفصل الرابع: أماكن الاحتفالات ١٣٢
أولاً- أماكن الاحتفالات..... ١٣٣
١. قلعة الجبل وملحقاتها..... ١٣٣
٢. الأسواق..... ١٣٥
٣. المساجد والزوايا والمدارس..... ١٣٧
ثانياً- دور اليهود والنصارى..... ١٤٠
ثالثاً- مظاهر الأعياد وارتباطها بالاستقرار الاجتماعي و السياسي..... ١٤٣
رابعاً- موقف المماليك من أهل الذمة..... ١٤٥
خامساً- موقف المسلمين من احتفالات أهل الذمة..... ١٤٧
الخاتمة..... ١٤٩
الفهارس..... ١٥٢
فهرس الآيات القرآنية..... ١٥٣

فهرس الأعلام..... ١٥٤
فهرس الأماكن..... ١٥٦
أسماء المصادر والمراجع..... ١٥٨
أولاً: المصادر..... ١٥٩
ثانياً: المراجع العربية..... ١٦٤
ثالثاً: المراجع المعربة..... ١٦٨
رابعاً:المراجع الأجنبية..... ١٨٩

رموز الرسالة

تح = تحقيق

ج = جزء

ص = صفحة

ط = طبعة

ق = قسم

مج = مجلد

د.ت = دون تاريخ

م = ميلادي

هـ = هجري

المقدمة

شغل العصر المملوكي مكانة مهمة بين عصور التاريخ, بسبب كثرة أحداثه التي مازالت آثارها باقية،وأحداثها ذات أثر واضح حتى الآن, وربما كان للأوضاع التي أصبح للعالم الإسلامي منذ القرن الثالث أثر كبير في توضيح الدور المهم الذي قامت به دولة المماليك, فقد أدى استيلاء المغول على العراق، وسقوط الخلافة العباسية في بغداد من ناحية, ثم تدهور أحوال المسلمين في الأندلس من ناحية أخرى إلى اتجاه أنظار المسلمين في المشرق والمغرب نحو مصر المملوكية باعتبارها المقر الجديد للخلافة العباسية, ومقر القوة الفاعلة التي نجحت في حماية مصر والشام من الخطر المغولي, كما نجحت في إخراج الصليبيين من الشام.

إن البحث في التاريخ المملوكي مسألة ليست سهلة, بل تحتاج إلى مراجعة وتدقيق, وتحليل تاريخي لأحداث داخلية, وتطورات خارجية كبيرة عاشتها الدولة المملوكية على مستويات مختلفة.

تعد الاحتفالات من الموضوعات المهمة التي تبرز بشكل واضح الصورة الباقية لتلك الحضارة، والرغبة الكبيرة في الاهتمام بالاحتفالات؛ لأنها كانت ولا تزال من أكثر الموضوعات ارتباطاً بنواحي الحياة المتعددة. كانت بنية المجتمع المملوكي طبقية اختلفت صفاتها، وخصائصها ومظاهرها، ومكانتها في الدولة والمجتمع وما لها من حقوق وما عليها من واجبات بين طبقة وأخرى, كما أن الاختلاف شمل اختلاف الشام عن مصر من حيث رابطة الدم، والجنس، والأصل وحتى اللون، وهذا ما جعل المماليك يشعرون في حالات كثيرة بالغربة في المجتمع, مما دفعهم إلى العيش حياة مستقلة أعطوا الرفاهية جانباً مهماً في حياتهم، وأنفقوا كثيراً من الأموال على احتفالاتهم الخاصة.

١- أسباب اختيار البحث وأهميته:

يعد العصر المملوكي من العصور المهمة في تاريخ بلاد لشام و مصر بشكل خاص , لذلك ما زالت الدراسات العربية قاصرة عن الإحاطة بأحداثه وتأثيراته الهامة, فهي بحاجة إلى دراسة سياسية شاملة تعالج هذه المرحلة وذلك بالانكباب المستمر على نشر المخطوطات وأمهات الكتب(الكتب الأصلية).

كتب المؤرخون عن حكم المماليك وصفاتهم لكن كتاباتهم لم تتعرض بشكل تفصيلي لنواحي معينة في حياتهم, فبالرغم من ظروف نشأتهم وكثرة الدسائس والمؤامرات والفتن, فإنهم أعطوا حياتهم الخاصة واحتفالاتهم جانباً مهماً, بحيث كانوا يحيطون أنفسهم بجميع مظاهر الفن والجمال والأبهة, وهذه المظاهر شكلت حلقة في منظومة حياتهم العامة (السياسية والاجتماعية).

والبحث في موضوع الاحتفالات المملوكية من الموضوعات المهمة التي لم تستحق الدراسة والبحث بمزيد من العناية،والتعمق والتحليل،والاستنباط، والاستنتاج, وقد تطرق عدد من الباحثين والمهتمين إلى الموضوع لكنَّه بقي إشكالية تحتاج إلى مزيد من الدِّراسة المعمَّقة.

توضح دراسة الاحتفالات في عصر المماليك الكثير من جوانب الحياة العامة السياسية و الاجتماعية خاصة الاحتفالات التي اعتنى بها السلاطين, والتي عكست العلاقة بين السلطة والعامة.

ويمكن من خلال دراسة الاحتفالات التعرف على سياسة المماليك تجاه الطوائف الأخرى وموقفهم منها سواء كان سلبياً أم إيجابياً، وبالتالي التعرف على أبعاد هذه الاحتفالات، ورموزها في سياسة السلاطين الذين اجتهدوا في استثمار هذه الاحتفالات، وخاصة الدينية منها لخدمة مشروعهم السياسي.

تأتي أهمية هذا الموضوع من خلال معرفة العلاقة بين السلطان ومماليكه الخاصين، وبالتالي الوصول إلى بعض الخصوصيات في نظام الحكم للسلاطين المماليك.

إن خصوصية هذا الموضوع وأهميته مرتبطة بخصوصية المرحلة التاريخية التي بُحث فيها موضوع الاحتفالات؛لأنها تعد المرحلة الذهبية في تاريخ بلاد الشام ومصر, وهو ما يمكن عده عاملاً من عوامل تعدد الاحتفالات, والأعياد, ومظاهر الترف, والرموز التي ارتبطت بها.

ويمكن من خلال هذه الاحتفالات الوصول إلى مدى تأثير المماليك في عادات أهل البلاد الأصليين من العامة, والتعرف على ميزات الوضع الديني الإسلامي في هذه المرحلة.

تعدُّ الاحتفالات من أعياد, ومواكب سُلطانية مؤشراً مهماً من شأنه أن يعكس مدى تقدم المجتمع؛ لأن المماليك حاولوا من خلال هذه الاحتفالات إظهار الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي كان يتمتع به سلاطين المماليك, كما كانوا يبحثون من وراء إحياء هذه المناسبات الدينية وسواها استغلال الواجهة الدينية في خدمة أغراض سياسية أهمها البحث عن الشرعية لحكمهم العسكري

باعتبارهم من المماليك (العبيد), والظهور بمظهر حماة الدين الإسلامي وديارة, واستعراض قوتهم العسكرية.

إنَّ المصادر التاريخية تشير إلى هذا الموضوع، وتبقى مهمة الدارس الاجتهاد في تقصي هذه الإشارات ومحاولة فهمها وحسن توظيفها.

٣- إشكالية البحث وأهدافه:

شكل الحكم المملوكي في مصر وبلاد الشام جزءً مهماً من الحكم الإسلامي في الوطن العربي، ووصل المماليك إلى ذروة نهوضهم في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠- ١٢٧٧ م) وذلك بسبب توفر عنصر الاستقرار السياسي بعد التصدي للخطرين المغولي والصليبي، وانتعاش النشاط الاقتصادي وخاصة التجاري. لقد انعكست هذه العوامل مجتمعة بشكلٍ إيجابي على صورة الحياة اليومية وعلى العادات الاجتماعية فيما يخص إحياء الاحتفالات الدينية وغير الدينية دون أن ننسى الاحتفالات المملوكية الخاصة بهم, والتي يظهر من خلالها مدى ترفهم وقوتهم، وقد تجسد ذلك في ظهور السلطان في مواكب خاصة بشعائر السلطنة اختلف كل موكب عن الآخر باختلاف المناسبة.

ويطرح البحث تساؤلات عدَّة لابدّ من الإجابة عليها؛ لأنها تفتح آفاقاً هامة للعمل تظهر خصوصية هذه المرحلة من خلال التعرض لمختلف هذه الاحتفالات, ومواكب الأعياد والألعاب المملوكية تبين من خلالها علاقة الأعياد بالمنطقة، ودور سلاطين المماليك في نموها.

إنَّ الهدف الرئيس من هذه الدراسة توضيح علاقة العلماء بالسياسة, ومدى قدرة سلاطين المماليك ونجاحهم في استغلال هذه المظاهر الدينية والاحتفالية لخدمة مشروعهم السياسي، وتخطي الأخطار الداخلية والخارجية المتمثلة أساساً في بقايا المعارضة الأيوبية لحكم المماليك، وصد الخطرين المغولي والصليبي اللذين يهددان استقرار حكمهم، وبالتالي التعرف على خصوصيات النظام المملوكي، ومدى نجاحه في خلق نظام خاص بهم.

ولعل الإجابة عن هذه التساؤلات توفر القدرة لفهم نقاط عدَّة حول الرموز التي تحملها بعض هذه الاحتفالات، والتي لا تزال محل جدل وخلاف في وجهات النظر العلمية التاريخية.

يطرح البحث تساؤلات عدَّة ومنها:هل كان استحداث هذا الاحتفال أو غيره لأسباب دينية أم سياسية،أم اجتماعية،أم اقتصادية. يمكن عدُّ هذه النقاط أهدافاً أساسية لدراستنا, والتي يمكن تلخيصها من تساؤل وحيد وهو مامدى نجاح سلاطين المماليك في توظيف الدين خدمة لمشروعهم السياسي, والتوفيق بين التقاليد الإسلامية, وتقاليدهم الخاصة, وإيجاد نظام سياسي متميز وغريب بعض الشيء عن النظم الإسلامية التقليدية.

إن مثل هذا الموضوع يفتح إمكانية البحث في موضوعات أخرى، ومجالات مختلفة للبحث كالبحث في البلاط المملوكي على سبيل المثال, وممزاته, ومقارنته ببلاط الدول الإسلامية السالفة.

٣- الصعوبات:

على الرغم من توفُّر المصادر التاريخية الحولية, و كتب السير،والدراسات الأخرى التي قام بها بعض المستشرقين, فقد وجدت صعوبة في التعامل مع عدد من المصادر والمراجع للتشابه في المعلومات؛ لأن معظمها اعتمد أسلوب النقل, والاقتباس, إضافة إلى التكرار في المعلومات المنقولة من مصدر واحد، وعدد من هذه المصادر يفتقر إلى التوثيق الدقيق.

ويتطلب البحث في موضوع الاحتفالات جهداً خاصاً, وتركيزاً عالياً للبحث والتحميص في بطون أمهات الكتب , ومحاكاة آراء المؤرخين وأفكارهم, ووضع آرائهم في مواضعها المناسبة.

وأتمنى أن أكون قد وصلت إلى الغاية المرجوة من البحث؛ لأن العمل بلا غاية والجهد بلا ثمرة ضرباً من اللهو. والبحث العلمي هو محاولة جادَّة لتحقيق أمر غامض، أو تفسير شيء مبهم، أو بيان أمر مغمور، أو كشف مجهول، أو تقرير موقف, أو إظهار حقيقة, وكل ذلك يكون عرضة للقصور التي هي جزء من طبيعة البشر. وحاولت في هذا البحث الموجز أن أجمع العناصر الرئيسة والخاصة بالموضوع.

الحمد لله العلي القدير وأسأله أن يجعل أعمالنا العلمية خالصة للنفع العام ومصلحة ومستقبل البحث العلمي علَّ الأجيال القادمة تفيد منه.

والله ولي التوفيق

٤- المنهج في البحث:

تعتمد الدراسة على المنهج التاريخي الذي يعتمد بدوره على المنهج التحليلي العلمي لكافة المعلومات الواردة في المصادر الأصلية, والمصادر المشتقة, ونقد الآراء التي كتبت حول الدراسة والقابلة للنقد أملاً في الوصول إلى حقائق تاريخية موضوعية حول جوهر التاريخ العربي الإسلامي في العصر المملوكي؛لأنَّ لكل طالب دراسة ظروفه الخاصة، ولكل مادة ما يناسبها من طرق لتحقيق أهداف البحث وسط الظواهر التاريخية الموجودة.

كانت الدراسة مكتبية ،جرى خلالها الاطلاع على المصادر الأساسية التي كانت عماد دراستي إضافة إلى المراجع التي تناولت تلك الفترة

ونظراً لتشعب موضوع البحث، فقد قسم إلى فصول موسعة ليسهل الوصول إلى المعلومة دون الالتزام بقراءة الرسالة قاطبة.

خصص المدخل لمعالجة القضايا السياسية حتى نهاية المماليك، وحاولت أن تكون الموضوعات التي تناولها هذا الجانب شاملة لمفردات التاريخ المملوكي،ولكن بشكل مختصر جداً؛ لأنَّ التوسع فيها يعني الخروج عن نطاق موضوع البحث.

كما خصصت الفصل الأول لدراسة الأعياد الشرعية لدى المسلمين وأهمها عيدي الفطر والأضحى, وموكب العيدين, ثم تطرقت إلى الاحتفالات غير الشرعية التي شملت إحياء ليلة رأس السنة الهجرية, وإحياء الموالد, وزيارة القبور, والأولياء الصالحين, ثم ليالي الوقود, و بينت موقف المماليك من احتفالات الشيعة. إضافة إلى دراسة محمل الحج السلطاني, كما قمت بالبحث في احتفالات بقية طوائف المجتمع من اليهود والنصارى.

وحاولت في الفصل الثاني دراسة الاحتفالات المملوكية،والتي شملت إحياء الخلافة العباسية في القاهرة والاحتفال بتولية الخليفة, وتولية السلطان المملوكي, وترقية المماليك, وفي هذا الفصل وضحت طبيعة الاحتفالات السلطانية, وطريقة القيام بها, وعودة السلطان من الحرب أو شفائه من المرض, أو خروجه إلى اللعب والصيد والنزهة.

وفي الفصل الثالث قمت بدراسة الأعياد المصرية الموروثة, كوفاء النيل, وكسر الخليج, وعيد الشهيد , إضافة إلى دراسة الأعياد الفارسية كعيدي النوروز, والمهرجان.

أما الفصل الرابع فقد خصص لإظهار أماكن الاحتفالات المملوكية وطريقة ممارستها في الأسواق ,والمدارس, والزوايا .... الخ.. ثم وضحت العلاقة بين المماليك وأهل الذمة, والتأثر والتأثير بين الطرفين.

أما الخاتمة العامة: فقد جاءت لصياغة نتائج البحث؛إذ وضحت فيها أهمية الاحتفالات وما قدمته من صور عن المماليك،ثم باشرت العمل على النحو التالي:

١. إعادة الآيات الكريمة إلى سورها، فقد حاولت توضيح مواضع الآيات الكريمة وإعادتها إلى سورها في القرآن الكريم.
٢. إعادة النصوص إلى مصادرها.
٣. شرح الألفاظ الغريبة وإظهار معاني بعض المصطلحات الصعبة، وذلك بالرجوع إلى الكتب المختصة.
٤. كما قمت باستخدام التقويم الهجري والميلادي.
٥. و ضمت الرسالة جدولاً بأسماء المماليك البحرية والبرجية. كما قمت بوضع فهرس بأسماء المصادر والمراجع العربية والأجنبية المعتمدة في البحث، إضافة إلى فهرس الأعلام والأماكن.

وفي الختام، آمل أن أكون قد وفقت فيما عملت واجتهدت فلي أجران وإن لم أصب فلي أجر , وحسبي أنها محاولة من طالب علم في بداية الطريق العلمي المعرفي.

٥- دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع:

أدت دراسة الاحتفالات المملوكية إلى التعامل مع عدد كبير من المصادر التاريخية التي اعتمدت فيها على توضيح بعض القضايا في هذا البحث في محاولة للوصول إلى الحقيقة التي سوف تكون يتمُّ من خلالها التعريف بالمصادر التي قامت عليها هذه الدراسة ، ومدى الفائدة منها، فقد تم تقسيم المصادر إلى كتب الحوليات، وترتيبها حسب قدمها أو قدم مؤلفيها، ثم كتب الموسوعات,والتراجم, وكتب السير والمعاجم، وجميعها رتبت حسب سنة وفاة أصحابها أو قدمها.

يجب أن نشير في البداية إلى أن جلّ المؤرخين كانوا مصريين وشاميين, فالمقريزي أمضى شطراً من حياته في بلاد الشام حين شكلت كلّ من بلاد الشام ومصر آنذاك سلطنة واحدة، لذلك وضعت المصادر الشامية والمصرية كتلة واحدة, و تحدد طبيعة كل بحث من الأبحاث التاريخية نوعية مصادره،فكل موضوع له مصادره الخاصة، فالتاريخي له مصادره, والجغرافي له مصادره. وبما أن البحث هذا بحث تاريخي ، فقد كان لزاماً علي العودة إلى عدد متنوع من المصادر من كتب التاريخ العام، والحوليات، والتراجم، وكتب السير، إضافة إلى المعاجم التي أعطت صورة واضحة عن عدد كبير من المناطق الجغرافية، إضافة إلى مصادر ومراجع التاريخ الإسلامية,وهذا ما أدى إلى تنوع مصادر البحث مما جعل تعريفها أمراً صعباً.

وقد استندت هذه الدراسة على مصادر ومراجع مهمة ومنوعة لمؤرخين عاصروا الأحداث, والحقيقة أن مؤرخينا لم يقتصروا على تدوين الأحداث السياسية, بل جاوز الأمر الأوضاع الاجتماعية التي كان يعاني منها المجتمع آنذاك, فأعطانا أحياناً صورة فريدة وصادقة عن العصر، وهي:

* الكتب التاريخية:

آ- الحوليات:

١. **أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس) (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م):** مؤرخاً، محدثاً فقيهاً، أتقن الفقه والحديث،وبرع في اللغة العربية،وجمع العديد من المصنفات في فنون العلوم,ومن مصنفاته التي استفدت منها

(الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، بحيث رممت أجزاء من البحث [١] وخصوصاً لدى الحديث عن صلاح الدين وورثته.

٢. **أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل) (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م):** ولد في دمشق،ونشأ فيها أميراً في ظل أبيه الملك الأفضل، ومن ثم التحق بخدمة السلطان الملك الناصر ملك البلاد المصرية والسورية، عالماً بالفقه والطب والحكمة والتاريخ وعلوم أخرى، ويعد أحد أئمة المؤرخين الذين استطاعوا أن يصوروا لنا الأحداث السياسية في بلاد الشام ومصر .تعود براعته في ميدان الكتابة إلى ثقافته العالية ،وأهم مؤلفاته التي استفدت منها **(المختصر في أخبار البشر)** وهو كتاب تاريخ شامل بحيث حرص أبو الفداء على تجنب الاقتباس من المصادر الأخرى، وعلى ترتيب مادته بطريقة علمية منظمة [٢].ومن خلاله حصلت على معلومات عن توران شاه وأعماله، واتهامه لزوج أبيه شجرة الدر بالاستيلاء على حكمه. وتطرقت إلى معركة عين جالوت.

٣. **ابن كثير (عماد الدين إسماعيل القرشي) (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م):** قدم معلومات ومواد تاريخية هامة صنفها في كتابه الشهير **(البداية والنهاية)**، وابن كثير شامي المولد والمنشأ، ألف كتباً متعددة في التاريخ والتفسير. اتبع ابن كثير في كتابه التسلسل الزمني سنة بسنة دون ذكر أي عناوين فرعية لها،وأتبع كل سنة بذكر وفيات الشخصيات الهامة، ومواد ابن كثير غنية جداً لكن ينقصها التحليل والتقصي والاستنتاج. كان أسلوبه قريباً إلى العامية منه إلى

---

١ – الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٩٧، ج٤، ص٧٠/ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بيروت، ج١، ص٢٩٤/ ابن العماد (الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي): شذرات الذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ج٥، ص٣١٨/ الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج٢، ص٢٦٩.

٢ – ابن العماد، المصدر السابق، ج٦، ص٩٨/ الكتبي، المصدر السابق، ج١، ص١٨٣. ابن كثير (أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي): البداية والنهاية، توثيق علي محمد حسن، دار الكتب العلمية، ١٩٧٤، ج١٦، ص١٥٨/

الفصحى،وعلى الرغم من ذلك لم يستغنِ البحث عنها نظراً لغزارتها وأهميتها.شملت الحديث عن السياسة ، فقد توزعت على فصول الأطروحة [١],

٤. **ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين) (ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٦ م):** من المؤرخين العرب الذين أمضوا شطراً من حياتهم متنقلين بين المغرب ومصر والشام.انحدرت عائلته من أصل عربي يمني،واستقرت بداية في الأندلس قبل أن تغادرها إلى تونس كي تستقر فيها. توفي ابن خلدون في القاهرة وكان فصيحاً جميل الصورة عاقلاً. يعتبر كتابه(**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)** من أهم الكتب على الإطلاق، وهو سبعة مجلدات ،وإن المستعرض لتاريخ ابن خلدون يلاحظ أن المؤرخ لم يختلف نهجه عما سبقه من أسلافه، فضلاً عن اعتماده على المصادر المعاصرة لبعض الفقرات وتلخيصها وصياغتها بما يتواءم مع أسلوب العبر. اقتصرت الإفادة من كتابه في مواضع قليلة وبسيطة (نهاية حكم الأيوبيين)[٢], بدراسة الطريقة التي قتل فيها تورانشاه.

٥. **المقريزي (أحمد بن علي) (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٣ م):** وهو مصري المولد، وشامي النشأة. تأثر بعدة مؤرخين منهم ابن خلدون. يعد من أبرز مؤرخي مصر، تولى عدة مناصب سياسية هامة منها: ديوان الإنشاء بالقلعة، ثم قاضياً عند قاضي قضاة الشافعية. اعتمد في كتابه **السلوك لمعرفة دول الملوك** ذكر معلومات هامة ومفصلة حول دخول المغول إلى بلاد الشام، كما ختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها باختصار، ثم جعل للسنة الجديدة عنواناً جديداً، لذلك فإن الإفادة من كتابه **السلوك لمعرفة دول الملوك كبيرة** بجميع جوانب الأطروحة،كالحديث عن شراء الصالح أيوب للمماليك من شجرة الدر وأعمالها وألقابها، وقد اعتبرها المقريزي أولى سلاطين المماليك, وتحدث عن موطن المماليك البرجية, ولم أستطع

---

١ – Ibn Kathir: Historica Arabica. II. 1955. P.42- 88

٢ – الزوادي (محمود): أضواء جديدة على محدّدات العقل العمراني الخلدوني، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٣، ص١٢/ كراتشكوفسكي(إغناتي يوليانوفيتش): تاريخ الادب الجغرافي الغربي, ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم, لجنة التأليف والنشر , القاهرة, ١٩٦٥, ص ٤٣٩– ٤٤٥.

الاستغناء عنه في أي مكان منها، ويدل هذا على أن السلوك يحوي مادة إخبارية واجتماعية واقتصادية هامة جداً، أفاد توظيفها الأطروحة بشكل مناسب. و يعدُّ كتاب **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** خلاصة مجهود شاق حيث كانت الفائدة من الخطط كبيرة في التطرق إلى تربية المماليك وأسواق بيعهم،ونظام الملك في سلطنة المماليك وخاصة فيما يتعلق بالنظام المالي والقضائي والمظالم وما أورد من تراجم كبار موظفي الدولة في دولة المماليك [1]. وكتاب **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك يعدُّ** بنفس أهمية الكتب السابقة؛ إذ يذكر فيه تفاصيل من حج من الملوك والخلفاء.

٦. **العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر) (ت ٨٥٢ هـ /١٤٤٩ م):** عسقلاني الأصل مصري المولد، ألف عدة كتب في التاريخ العام وفي التراجم، يحتوي حوادث الزمان منذ سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة حتى وفاته، أهم كتبه: **إنباء الغمر بأبناء العمر** ويقع في تسعة أجزاء، حوت حوادث اعتمدت على سنة، والأوضاع السياسية ثم أتبعها بوفيات الأعيان، وكانت الإفادة منه كثيرة . ومن كتبه (**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**), فهو كتاب شامل لأعيان العصر من علماء وفقهاء وسياسيين. نهج ابن حجر في تأريخه الترتيب الأبجدي وقد أمكن الاستفادة منه كثير [2].

٧. **العيني (محمد بن أحمد بن موسى بدر الدين) (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م):** تولى مناصب ووظائف متعددة، كان لإتقانه اللغة التركية أثر كبير في تقريبه من السلاطين المماليك. بدأ التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره، وبقي على مدى سبعين عاماً في التأليف, والتفسير, وعلوم الحديث وعلوم الفقه واللغة والمنطق... الخ. خلّف لنا العيني مؤلفاً ضخماً أسماه: (**عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**) **أهميته:** توازي أهمية السلوك بل تفوقه أحياناً بما يحتويه من معلومات ، ولعل أهميته أن العيني أشار بصراحة إلى المصادر التي اعتمد عليها ونقل عنها. أرّخ العيني في عقد الجمان للأحداث التي عصفت ببلاد الشام منذ قدوم هولاكو،

---

١ – السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج٢، ص٨/ مناف (محمد عبد الله): مؤرخو مصر الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٩، ص٨٥.

٢ – ابن العماد، المصدر اسابق، ج٧، ص٢٦٩.

ويظهر أن شجرة الدر آخر سلاطين الأيوبيين على اعتبارها زوج الصالح أيوب, حيث جمع في كتابه من الحوادث وأخبار الأعيان ما يعتبر فريداً من بابه، دقيقاً في معناه[١].

٨. **ابن شاهين الظاهري(غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري) (ت ٨٣٧هـ/ ١٤٦٨م):** أحد كبار رجال الإدارة في دولة المماليك , ولد في القدس تلقى تعليمه في مصر, شغل مناصب عدة فكان والياً على الإسكندرية وأميراً للحج لعام ٨٤٥هـ /١٤٤٣م ثم أصبح والياً على الكرك وصفد وملطية وأتابكاً لحلب, وتولى في دمشق مناصب عدة, وفي كتابه **زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك** جهد الظاهري في تقديم صورة متكاملة لجوانب النظام الإداري لمصر, وفي الباب الثاني من كتابه يشير إلى الكلام عن نظام السلطنة وما يتحلى به السلطان من الصفات, ويصف المواكب الشريفة والملبوس, وبشكل عام يتميز كتابه بالتلون وبأهمية كتابه[٢] .

٩. **ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف) (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م):** مصري المولد والنشأة، أخذ عن مشايخ كثر مختلف علوم عصره بمصر والشام والحجاز، لزم المقريزي والعيني، ونهج منهجهما، واتبع أسلوبهما ونمطهما في التحصيل. من مصنفاته **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** شمل تاريخ مصر من سنة ٢٠ هـ /٦٤٠ م إلى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٥٧ م وهو كتاب ضخم ضمّ عدداً كبيراً من التراجم بالإضافة إلى أخبار أدبية واجتماعية واقتصادية, فكانت الإفادة من كل ذلك وقد تحدث عن أسعار المماليك ومعركة المنصورة و مقتل أيبك, تأتي أهمية كتبه كونه يؤرخ بشكل موسع للعصر المملوكي، اعتمد أسلوب الحوليات، فقد ذكر السنين وحوادثها تباعاً من غير أن يجعل لها عناوين مستقلة، حتى إذا توفي السلطان أتى على أخباره مرة أخرى في ترجمة منفصلة وشرح أخلاقه وعوامل نجاحه أو إخفاقه, ثم أعقب ذلك كله ترتيب سنوات العهد ترتيباً عددياً, وذكر وفيات كل منها. يساعد هذا الكتاب الإطلاع على الجو العام الذي عاشته البلاد وما لحقها من اضطراب وفوضى وأضرار مادية وبشرية

---

١ – السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص١٣٥/ الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، ١٩٣٥، ج٥، ص٢٥٨.

٢ – المنجد, مدينة دمشق, ص ٢٩٠.

جسيمة والتعرف على سلاطين المماليك البرجية و البحرية. وبالتالي أمكن الإفادة من مواده في جميع فصول البحث[1].

١٠. **ابن إياس (محمد بن أحمد) (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م):** أمدنا بمعلومات غنية هامة متضمنة في كتابه **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ويعتبر كتاب بدائع الزهور أحد المصادر الهامة لعصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثماني، يقع في أحد عشر جزءاً, يتناول حقبة زمنية تمتد من بدء التاريخ حتى سنة ٩٢٨ هـ /١٥٢١ م، سنة وفاته. جمع ابن إياس بين أسلوب المقريزي وابن تغري بردي في تقسيمه لكتابه، إذ قسمه إلى عهود مستقلة، وأشار إلى السنين بعناوين واضحة، لكنه شذ عنهما بعدم ترتيبه الوفيات ترتيباً منفصلاً مثل أسلوب ابن تغري بردي، ولم يكتبها في نهاية الفصول كما فعل المقريزي، بل أشار إليها بإيجاز. وقد كانت الفائدة منه عامة في أجزاء عديدة من البحث[2]. ومن كتبه الهامة كتاب **نزهة الأمم في العجائب و الحكم** الذي أفاد إفادة كبيرة خصوصاً في الفصل الثالث.

ب- الموسوعات:

ظهرت الموسوعات كنمط جديد في التأليف وقد ألفت بغرض خدمة كتبة الدواوين لكنها أفادت الباحثين بطريقة غير مباشرة, لتنوع موضوعاتها ومن أهم الموسوعات:

١. **النويري (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم القرشي التيمي البكري النويري) (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م):** أحد الموسوعيين البارزين الذين قدموا معلومات إخبارية هامة في مؤلفه الضخم المعروف باسم **نهاية الأرب في فنون الأدب** وهو أشبه بدائرة معارف واسعة لما

---

١ – السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٣٠٥/ ابن العماد، المصدر السابق، مجلد ٩، ص٢٧٢/ Popper W, History of Egypt, 1382- 1469, California, 1909- 1933./ ابن طولون الصالحي: إعلام الورى , ص ٣٧./ عنان, مؤرخو مصر الإسلامية, ص ١١٤./ دائرة المعارف, بإدارة محمد أفرام البستاني, ج٢, ص ٣٨٤.

٢ – الإيبش (أحمد)– الشهابي (قتيبة): دمشق الشام في نصوص الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨، ج٢، ص٧١٧. / المنجد, مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين, ص ٢٢١.

وصلت إليه العلوم عند المسلمين في عصره, تحتوي على جميع أنواع المعرفة اللازمة لطبقة الكتّاب، وتعد معلوماته موثوقة باعتباره شغل وظائف عديدة في الجهاز الإداري المملوكي، ويعد كتابه من أشهر الموسوعات التاريخية العلمية, فهو يشتمل على ثلاث وثلاثين جزءاً. لذلك فقد وجدت فيه مادة غزيرة وغنية ولكنها إخبارية [١], عن الحملة الصليبية ومعركة المنصورة, وتحدث عن تولية شجرة الدر ومقتلها.

٢. **العمري (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى ابن فضل الله) (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م):** نشأ في دمشق، وتولى القضاء فيها، وكتابه السر بمصر نيابة عن والده، كان إماماً في الأدب والتاريخ والإنشاء والشعر ،وكان حجة في معرفة المسالك والممالك وخطوط الأقاليم على اختلاف موضوعاتها، ومن أهم مصنفاته **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** في سبع وعشرين مجلداً وهو موسوعة معارف تاريخية وجغرافية للعالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري. وقد استفدت منه بشكل كبير في البحث نظراً لكون مادة العمري موثقة نتيجة المناصب السياسية التي شغلها. ويعد الكتاب دائرة معارف واسعة ضمنها التاريخ الذي يبدأ من عصر الهجرة ويمتد حتى سنة (٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م) غير أن الكتاب غير متداول طباعياً وما بين أيدينا أقسام يسيرة منه. وقد استفدت منه كثيراً في الجانب التاريخي[٢], بالحديث عن جنسيات المماليك, وموظفي البلاط المملوكي.

٣. **القلشقندي (شهاب الدين أحمد بن علي) (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م):** صاحب الموسوعة الشهيرة **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** كان له الفضل في توضيح اختصاصات البلاط السلطاني والحاشية السلطانية، وقد استمد مادته من مصادر عاشها مؤلفوها في ذلك الوقت مما يرفع من شأنه، وصبح الأعشى موسوعة إدارية ضخمة بمثابة دائرة معارف لكل ما يفيد كتّاب عصره وفيه مواد كثيرة مختلفة عن العالم الإسلامي بأواخر القرن الثامن وأوئل التاسع

---

١ – العسقلاني (ابن حجر): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٩٦، ج١، ص١٩٧.

٢ – الأعلام، ج٨، ص٥٢/ الكتبي، المصدر السابق، ج١، ص١٥٧. كما كتب عنه:
Demombynes G, Là Syria A l'époque des mamloukes,Paris pp. III- IV.

للهجرة، والمعطيات الجغرافية فيه ذات أهمية خاصة، فهو يقدم وصفاً لنواحي مصر والشام على اعتبارهما قاعدة الدولة المملوكية، مولياً اهتماماً خاصاً بنظامها السياسي والإداري, وتحدث عن أعياد أهل الذمة...إلخ [1].

ج- كتب التراجم:

١- **الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله) (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م):** قرأ الحديث وأخذ العلم من كبار العلماء، وألف مؤلفات هامة منها كتابه **الوافي بالوفيات** يعد من أوفى الكتب المؤلفة في الإسلام من تراجم الرجال. ترجم فيه للصحابة، والتابعين، والملوك والأمراء، والقضاة، والقرّاء، والأدباء، والشعراء(الذهبي) إلى غير ذلك فكانت الفائدة منه كبيرة[2].

٢- **الكتبي (ابن شاكر) (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م):** ولد في دمشق، كان فقيراً، ثم تحسنت حاله بممارسة تجارة الكتب التاريخية والأدبية بعد نسخها بخطه الحسن،وكان لجودة الخط ووضوح معاملته وحسنها لمن يتعامل معه في هذه التجارة أثر بالغ في تشجيع شرائها واقتنائها، ومع ذلك لم تبلغ ثقافته اللغوية والنحوية الجودة المطلوبة في المؤرخين في كتابه **فوات الوفيات** وهو مجلدان اشتملا على ترجمة خمسمائة واثنتين وسبعين شخصاً [3].

ء- كتب السير:

يمتاز العصر المملوكي بعدد كبير من كتب السير، ولعل الدوافع للتوجه لكتابة السير وجود شخصيات قامت بأعمال هامة, فكان لابد من تسليط الأضواء عليها, وكان التأليف في السير يقوى

---

١ - السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٨/ العسقلاني (ابن حجر): أنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦، ج٧، ص٣٣٠.

٢ - ابن العماد، المصدر السابق، مجلد ٣، ص٣٤٣/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٧٦.

٣ - ابن العماد، المصدر السابق، ج٦، ص٢٠٣/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٧.

تبعاً لأهمية الشخصية المؤرخ لها، ولقوة الكاتب ومدى إيمانه بالموضوع الذي يعالجه، أو يضعف لضعف هذه النواحي، والملفت للنظر أن العصر المملوكي امتاز بحظ وفير في كتابة السير أهمها:

١. **ابن عبد الظاهر (محي الدين أبي الفضل) (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م):** من أهم المؤرخين الذين اعتمدتُ عليهم، كان كاتباً في ديوان الإنشاء بالقاهرة عندما تولى الظاهر بيبرس السلطنة، استمر في مركزه طوال فترة بيبرس وأثناء حكم ابنه،وجزء من حقبة حياة قلاوون وابنه الأشرف خليل , وقد دون ابن عبد الظاهر عدة سير أهمها **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** كتبها للظاهر بيبرس، ومما دفع المؤلف إلى تدوين هذه السيرة العصر الذي عاش فيه الظاهر، حيث اشتد النزاع بين المسلمين والفرنجة ولا سيما أن بيبرس كان أول شخصية مملوكية هامة أرست قواعد السلطة إثر الانتصار العظيم في عين جالوت، وأول شخصية مملوكية خطط لاسترداد المعاقل العربية من الصليبيين ونجح في ذلك. كان منهج ابن عبد الظاهر طريقة حولية، فقد جعل الحوادث مرتبة حسب السنوات، فكان يضع كل سنة وتحتها عناوين فرعية تشير إلى طبيعة الحوادث، وجاءت معلوماته على نحو كبير من الأهمية [١]. وكتاب **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور** الذي تحدث فيه عن الملك المنصورقلاوون.

هـ- المعاجم:

١ – الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص١٧٩. / ابن عبد الظاهر(محي الدين): تشريف الأيام العصورفي سيرة الملك المنصور, تح مراد كامل, وزارة الثقافة مصر, ١٩٦١, ص ٧٦./ الكاتب(الشافع بن علي): حسن المناقب السرية من السيرة الظاهرية, تح عبد العزيز خويطر, الرياض, ١٩٧٦, ص ١٠١.

نشط العرب في مجال التاريخ، كما نشطوا في مجال الجغرافية والرحلات، واستأثرت بلاد الشام باهتمامات الرحالة حتى أنه لم يبقَ أحد منهم إلا وزار الشام, وكتب عنها وكان من أهم الذين كتبوا في هذا المجال:

- **ياقوت الحموي (بن عبد الله الحموي) (ت ٦٢٦ هـ /١٢٨٢ م):** سافر وتعلم منذ صغره وكان جليلاً له مؤلفات منها **معجم البلدان**، الذي يعد بحق من أهم المصنفات في تراث الأدب الجغرافي، كونه زار كل منطقة كتب عنها، ورتب ياقوت الأسماء الواردة على حروف الهجاء، فكان مصدراً أساسياً في الأماكن [١].

و- كتب الرحلة:

-**ابن بطوطة)(محمد بن عبد الله) (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م):** وكتابه **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** التي كان مؤلفها شاهد عيان عاصر دولة المماليك, وزار مصر في عهد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون, فكانت الإفادة منه كثيرة في جميع فصول البحث.

ي- كتب الفقه:

- **ابن الحاج(أبوعبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي) (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م):** وهو مغربي الأصل ومن أبرز المؤرخين الذين اهتموا بدراسة المماليك من الناحية الاجتماعية, ويعد كتابه **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات** من أفضل كتبه وهو في أربعة أجزاء , وقد كانت الإفادة منه في جميع أجزاء الرسالة, ففي هذا الكتاب نقد للعادات الاجتماعية السائدة في الدولة المملوكية, ويعد هذا المصدر فريداً من نوعه لأهميته الكبيرة.

ز -المراجع:

١ - ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، م٦، س١٢٧.

من الممكن أن نضيف إلى قائمة المصادر أسماء بعض المراجع التي أفادت البحث،وأهمها: كتاب **عصر المماليك في مصر وبلاد الشام** للمؤرخ سعيد عاشور, ومن كتبه التي أفادت موضوعات مختلفة من البحث: **بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**, وكتاب **المجتمع المصري**،وكتاب **صور مجتمع القاهرة في العصور الوسطى**.

وهناك أيضاً قاسم عبدو قاسم الذي اهتم كثيراً في دراسة الحياة الاجتماعية للمماليك، ومن كتبه التي أفادت منها كلُّ فصول البحث: **بعض مظاهر الحياة اليومية** ،و**أهل الذمة** ،و**عصر سلاطين المماليك** ،و**اليهود في مصر**, هذه الكتب وضحت بشكل كبير الوضع الاجتماعي للمماليك إضافة إلى دراسة الأعياد.

ومن أهم المراجع الأجنبية التي اعتمدها البحث

Catherine Mayeur Joauen, gens de la maison et mouleds d'Egypte.

وفيه إبراز لخصوصية الاحتفال بالمولد .

وهناك مؤرخون كثر أفدت منهم ونقلت عنهم ، وقد أشرت إليهم في الحواشي، واكتفيت في هذه المقدمة بذكر المشاهير منهم الذين كتبوا عن الاحتفالات وممن وصلتنا كتاباتهم، كما استعنت بعدد كبير من المراجع، إضافة إلى معلومات متفرقة من كتب أجنبية أشرت إليها في الحاشية.

أخيراً يجب التنويه إلى أنه على الرغم من كثرة المصادر وغناها بالمواد الإخبارية نجد أن ما يتعلق في موضوع البحث كان قليلاً،ولذلك وجدت صعوبة كبيرة في توظيف هذه الحوادث لخدمة الموضوع، وكان للأستاذ الدكتور المشرف الفضل الكبير في إفادتي لاستخلاص النتائج وتحليلها, وتوظيفها لصالح البحث .

المدخل

لمحة تاريخية عن

الممالیك

مقدمة:

يعد عصر المماليك من أهم عصور مصر وبلاد الشام الإسلامية، سواء من حيث التاريخ السياسي أو من حيث الازدهار الحضاري، وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا غرباء لكنهم استطاعوا تحقيق السيادة والاستقلال للبلاد المصرية والشامية.

تميز عصر سلاطين المماليك بسمات حضارية معينة ميزته عن العصور التاريخية الأخرى, خاصة منها على الصعيدين السياسي والاجتماعي، ويعود ذلك إلى الأصل الأجنبي للمماليك الذين يعدون من العبيد الغرباء عن دولة الإسلام،وعن حضارتها، وعن تقاليدها.

إن القصد من دراسة هذا الفصل ليست دراسة السلطنة المملوكية ومؤسساتها بشكل مفصل؛لأنَّ هذا يخرج عن دراسة البحث بشكل كامل، إنما الغرض منه إعطاء لمحة عن الدولة المملوكية في جميع نواحيها.

أولاً- أصل المماليك:

لا بدّ من التعرف على معنى كلمة مملوك،والمملوك جمعه مماليك مشتق من الفعل العربي ((مَلَكَ)) [١] والمملوك من سُبِي ومُلك دون أبويه. إن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم حيث وردت عبارات ((ملكت أيمانكم)) و ((ملكت أيمانهم)) و ((ملكت يمينك)) أكثر من مرة [٢].

ثم أخذت هذه الكلمة مدلولاً اصطلاحياً يقصد به جميع الرقيق الأبيض الذين يصبحون رقيقاً نتيجة الأسر أو الشراء من التجار [٣]، والمملوك عكس العبد، فالعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين كما أن العبد أسود بينما المملوك غالباً أبيض [٤].

١- ابن منظور- (جمال الدين محمد): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٩٩٧، ج١، ص٣٩٣./ العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، ١٩٦٩، ص١١.

٢- القرآن الكريم، سورة النساء، آيات (٣، ٢٤، ٢٥، ٣٦)، سورة النحل، آية ٧١، سورة الغور، آيات (٣١، ٣٣، ٥٨)، سورة الروم، آية ٢٨، سورة الأحزاب، آية ٥٠./ اسماعيل (شفيق): حقيقة المماليك، دمشق، ط١، ٢٠٠١، ص١٣.

٣- عاشور (سعيد): العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنغلو مصرية، ط٣، ١٩٩٤، ص٧.

٤- ماجد (عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٢./ اسماعيل (شفيق): المرجع السابق، ص١٥- ١٦.

شاع استخدام المماليك في بلاد العرب العالم الإسلامي في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية نتيجة ضعف الدولة من جهة، ورغبتهم بالاستقلال عن الخلافة ، وكثرة المنازعات والحروب فيما بينهم من جهة أخرى [١].

وقد كانت القاهرة غنية بأسواق الرقيق [٢]، ولما انتقلت السلطنة إلى الأيوبيين ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ساروا على نفس الطريق الذي سار عليه أسلافهم من شراء المماليك، وبنوا لهم ثكنات خاصة بهم [٣]، والغالبية العظمى من المماليك من منطقة القبجاق [٤]، ثم أصبح يُؤتى بهم من منطقة القفقاس[٥]. هذا التحول من منطقة القبجاق إلى منطقة القفقاس كان له عدة أسباب أهمها:

١- الحروب الداخلية بين أمراء القبجاق.

٢- تناقص عددهم نتيجة غزو تيمور لهم.

٣- تناقص الشباب بسبب الاستيراد الكبير وبشكل مستمر إلى السلطنة المملوكية.

٤- زيادة نسبة عدد النساء نتيجة تناقص عدد اليافعين.

٥- فقدان أسر بكاملها نتيجة لحاقهم بالرجال.

لم تشر المصادر إلى تاجر من تجار المماليك باسمه، إلا إذا جاء بمملوك كان له دور كبير في الدولة[٦] وأشهرهم فخر الدين بن عثمان بن مسافر تاجر السلطان برقوق[٧]. وكان إذا وصل تاجر المماليك إلى القاهرة لقي أنواعاً من الحفاوة من السلطان، ويشير القلقشندي إلى مسامحة التجار

١- عاشور (سعيد): العصر المماليكي، ص١٠.

٢- المقريزي(أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية، بيروت, دار صادر,١٩٥٠ ج٢، ص٣٧٥./ النباهين (علي سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر، ط١، ١٩٨١، ص٩٣- ٩٥.

٣- طقوش (محمد سهيل): تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، ١٩٩٧، ج١، ص١٠/ الأصفهاني (عماد الدين): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة، د. ت، ص٣٥٨- ٣٥٩/ رافق (عبد الكريم): بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط٢، د. ت، ص١٤.

٤ – القبجاق: منطقة السهوب جنوب روسيا.

٥- شبارو (عصام): المماليك والسلاطين في الشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٤، ص٧.

٦- ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ط١، ج٦، ص٣٢٢.

٧- السخاوي, الضوء اللامع لأهل القرن التاسع, ص١٠- ١١/ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٩١.

الخواجكية بما يلزم من المكوس والمقررات السلطانية عن نظير ثمن ما يباع منهم من المماليك [١]. وأيضاً لم تشر المصادر إلى أثمان المماليك سوى الذين ارتقوا في الجيش مثلاً قلاوون الألفي؛لأنه دُفع من ثمنه ألف دينار [٢].

بعد التعريف بالمماليك وبسبب تسميتهم، ومن أين جاؤوا لا بدّ من الانتقال إلى مرحلة أخرى من حياتهم، فمن المعروف أن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، شهد ازدياد أعداد المماليك في مصر والشام بصورة كبيرة, كما أن ورثته (أبناءه، أخوته، أبناء أخوته) اقتسموا فيما بينهم دولته الواسعة [٣].

لم يلبث الشقاق،والخلاف أن دب بين ورثته, فقامت الحروب بينهم، فعمد كل أمير إلى أن يصنع قوة خاصة به، فأكثروا من شراء المماليك وكوّنوا عصبية خاصة بهم، وأصبحوا قوة مسموعة، لكن يجب التنويه إلى أن هؤلاء المماليك ظلوا تحت سيطرة الأيوبيين, ولم يتمردوا عليهم في تلك المرحلة ؛لأنَّ الأيوبيين كانوا أقوياء،ولكن عندما بدأ الضعف يدب بينهم، أخذ نفوذهم يزداد حتى شكلوا دولاً [٤].

أخذ المماليك بالاعتداء على أموال الناس [٥]، مع أنهم وقفوا موقفاً عظيماً في وجه الصليبيين والتتار،ولكن استيلاءهم على بيت المقدس سنة (٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) استثار الغرب فجهزوا حملة بقيادة لويس التاسع قاصداً مصر، فاستولى على دمياط سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م)، في هذه الأثناء

١- القلقشندي(أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الانشاء, تح محمد حسين شمس الدين, بيروت, دار الكتب العلمية, ط١ ,١٩٨٧ ، ج٤، ص١٣٨/ المصدر السابق، ج٣، ص٣٨- ٤٠.

٢- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٧، ص٣٢٥/ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٣٥.

٣- الأصفهاني: المصدر السابق، ص٣٥٨/ أبو شامة (شهاب الدين بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم القدسي الدمشقي): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ابراهيم زيبق، ط١، ١٩٩٧، ج٣، ص٣٦٦-٢٩٥/ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧، ج٢، ص٣٧٥.

٤- عاشور (سعيد): العصر المماليكي، ص١١.

٥- ابن إياس: المصدر السابق، ج١، ص٢٦٦.

كان الصالح أيوب مريضاً، فذهب إلى المنصورة لينظم شؤون الدفاع، لكنه توفي سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م [١].

كان للصالح أيوب ولد واحد هو تورانشاه،وكان نائباً له في حصن كيفا وهو شاب عديم الخبرة[٢]. لكن الظروف شاءت أن يخرج من بين حريمه امرأة قوية تمثلت بشجرة الدر التي تصرفت خلال وفاته تصرفاً حكيماً , فقد أخفت نبأ وفاته, وعملت على استدعاء تورانشاه، واستمرت المناشير تخرج من غرفته وعليها ختم السلطان،وبقيت الأوضاع كما لو كان حياً لكن رغم ذلك وصل نبأ وفاته إلى لويس الذي اتجه إلى المنصورة وهناك التقى الطرفان، واستطاع المماليك أن يحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة،وأسروا أعداداً كبيرة منهم كان من بينهم لويس التاسع الذي قيّد مكبلاً إلى المنصورة [٣].

وصل تورانشاه إلى مصر ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م بعد موقعة المنصورة مباشرة، وأعلن نفسه سلطاناً،ولكنه لم يكن رجل الساعة،وكان سيئ التدبير والسلوك،فبدلاً من الاعتراف بالجميل الذي قدمه المماليك له كونهم حفظوا له السلطنة، أخذ يعمل ضدهم. وتروي المصادر أنه كان يشرب الخمر ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد الأخرى حتى تنقطع، وهو يردد هكذا سأفعل بالمماليك ويسمي كل واحد من المماليك باسمه [٤]. كما أنه اتهم زوج أبيه أنها أخفت ثروة والده، وقام بتوزيع الإقطاعات على أصحابه ممن جلبهم معه [٥].

١- كرد علي (محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣، ج٦، ص٨٩/ المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤. سيمينوفا (ل): صلاح الدين (المماليك في مصر)، ترجمة حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ص٣٤/ J.oinvill, the life of saint Louis, transl by M.R.B.Shaw, penguin 1975, p197-206

٢- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص٣٦٤/ حصن كيفا: مدينة من مدن الجزيرة الفراتية قائمة على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة، للمزيد الحموي (ياقوت): البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤، ص٣٠٦.

٣- الذهبي (الحفظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٨، ص٤٩/ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الإسلام، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣، ج٢٩، ص٣٥٥- ٣٥٩.

٤- ابن العماد, شذرات الذهب, ص٤١٧/ الصفدي, الوافي بالوفيات، ص٤٤٥.

٥- أبو الفداء (اسماعيل بن عمر): المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب، بيروت، ج١، ج٣، ص١٨٠/ المقريزي(أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه أحمد مصطفى زيادة, مطبعة التأليف, مصر, ط١, ١٩٥٨ ج١، ص٣٥٨- ٣٦٠/ النويري: المصدر السابق، ص٣٦١. /Runciman;A History of the crusades, 3 vols, Cambridge, 1957, p 373.

حاول المماليك التخلص منه، وذلك بتحريض شجرة الدر، فحاصروه في المدينة التي يقيم فيها،فالتجأ إلى كشك خشبي فأشعلوا فيه النار، فألقى بنفسه في النيل، وقد أشعلت النار في ثيابه ولاحقوه بالنشاب وصار يصرخ لا أريد ملكاً، أريد فقط الذهاب إلى كيفا، لكن أحداً لم ينجده فقتل جريحاً وغريقاً ومحترقاً، وتركت جثته في العراء ثلاثة أيام حتى شفع له رسول الخليفة العباسي، ووري في التراب، وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر [١]

١- المماليك البحرية وأهم ملوكهم [٢]:

أصبح المماليك بعد مقتل تورانشاه، أصحاب الحل والعقد، كما وجد على الساحة السياسية، الملوك الأيوبيين في الشام، وقد استاؤوا من إقدام المماليك على قتل أحد ملوكهم، ومن الطبيعي أن يرى كل منهم في نفسه الشرعية حتى يلي السلطنة بعد تورانشاه. قرر المماليك حل المشكلة لصالحهم فاختاروا شجرة الدر لتولي السلطنة،

كانت شجرة الدر جارية من أصل أرمني، اشتراها الصالح أيوب فأعتقها ثم تزوجها، فهي من حيث الأصل والنشأة أقرب للمماليك لذلك عدها المقريزي أولى سلاطين المماليك [٣]. تولت السلطنة

١- العمري(شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح دورتينا كرافولسكي, المركز الإسلامي للبحوث,ط١ ,١٩٨٦ ص٥١/ ابن العماد: المصدر السابق، ص٤١٧/ ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، ط١، ١٩٨٠، ج٥، ص٤١٧/ الأنصاري (رؤوف): عمارة المساجد، دار الينبوع للطباعة، د. ت، ط١، ص١٤٣/ ابن عبد الظاهر (محي الدين): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٧٦، ص٤٨- ٥٠/ العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، ١٩٨٥، ج١، ص٢٦- ٢٧/ ابن دقماق(ابراهيم ابن محمد): الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين, تح سعيد عاشور, مركز البحث العلمي , السعودية، ص١٢٤٨ ,Wiet.G; L. Egypte Arabe, Paris, 1937, p382

٢- سموا بالبحرية فمنهم من يقول لأن الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة عند النيل. ومنهم من يقول إن تلك التسمية مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر.

٣- المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٦١. وقد ذكرت في بعض المصادرب(شجر الدر) وبعضها ب(شجرة الدر)الذي استعملته في الاطروحة.

شجرة الدر ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م [١]عرفت شجرة الدر بالمستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الخليل، أم المؤمنين [٢]، وكانت المراسيم تخرج باسم المستعصمية الصالحية [٣].

لم يكن يذكر اسمها أبداً بل كانت تنسب إلى زوجها أو ابنها، لكن الأمراء في دمشق لم يعترفوا بها، والخليفة العباسي أرسل كتاباً إلى مصر كتب عليه عبارته المشهورة: ((*إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نبعث إليكم رجلاً*)) [٤]. هذه الأمور مجتمعة دفعت شجرة الدر إلى خلع نفسها والزواج من أيبك أحد المماليك الصالحية.

كان أيبك [٥]من مماليك الصالح؛ أتابك الجيش [٦]،لم يكن حكمه مستقراً، فقد واجه مجموعة من الأخطار الداخلية والخارجية، فالأيوبيون في الشام، والبحرية الذين عزّ عليهم أن يستلم السلطنة من غير البحرية، فعملوا على الكيد له، لكن وصول خطر التتار أدى إلى وقوفهم معه, كما اعترف الخليفة العباسي بشرعية أيبك حيث جعل مصر وفلسطين لأيبك وبقية بلاد الشام للأيوبيين [٧].

١- هناك ثلاثة آراء تتعلق بنهاية الدولة الأيوبية في مصر وبداية دولة المماليك البحرية، الأول: يرى أصحاب هذا الرأي أن تورانشاه هو آخر الملوك الأيوبيين وشجر الدر هي أولى سلاطين المماليك، للمزيد المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٦١/ النويري: المصدر السابق، ج٢٩، ص٣٩٢. الثاني: يرى أن شجر الدر هي آخر سلاطين الأيوبيين باعتبارها زوج الصالح أيوب للمزيد المنصوري (بيبرس): التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربية، القاهرة، ط١، د. ت. /العيني: المصدر السابق، ج١، ص٣٤/ ابن إياس: المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢٨٦. الثالث: يرى أن الملك الأشرف موسى الذي نصبه أيبك هو آخر الأيوبيين (الأشرف هو موسى بن يوسف بن مسعود بن الكامل) عاش والده في كنف الصالح أيوب حتى توفي. للمزيد المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٦٩/ القرماني (أبو العباس أحمد حلبي الدمشقي القرماني): أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق محمد أمين، بغداد، ١٢٧٢ هـ، ص٦٥.

Historiens orientaux des croisades. 5 Tomes Paris, 1872- 1906. p42

٢- ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص٣٧٤.

٣- المقريزي: السلوك، ص٣٦٢/ حتي، فيليب، جرجي (ادوارد): تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط٨، ١٩٩٠، ص٣٦٣.

٤- ابن إياس: المصدر السابق، ص٣٧٤/ المقريزي: السلوك، ص٣٦٣.

٥- أيبك كان تركياً: أي = قمر + بك = أمير، أيبك هو السلطان المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركي الصالحاني، للمزيد ابن إياس: المصدر السابق، ص٢٨٩/

Becher G., Le Ghashija, comme embléme dela Royant'c, Palermo. 1910, p. 8

المنصوري, المصدر السابق، ص٣٥.

٦- أتابك: كلمة تركية مؤلفة من مقطعين أتابك تعني الأب، بك الأمير ومعناها أصبح قائد الجيش.

٧- سليم (محمود رزق): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي مصر ,ط٢, ١٩٦٢، ص٢٣.

لم يلبث أيبك أن سئم الحياة مع زوجه، وخشي على نفسه من غدرها وتفاقمت الخلافات بينهما مع مرور الوقت خاصة عندما علمت أن زوجها عزم على الزواج من ابنة الأتابك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل [١]. شكلت هذه القضية بداية النهاية لعهد أيبك.

كانت شجرة الدر لا تزال تحظى بعطف المماليك فأخذت تكاتبهم، وعلم أيبك بذلك، فعزم على التخلص منها، لكنها كانت السباقة، فأرسلت تستلطفه وتسترضيه فخُدع أيبك بكلامها، وحضر إليها ومكث عندها، وعندما دخل الحمام قام خمسة من الغلمان عليه فقتلوه، فأشاعت أن المعز أيبك مات فجأة في الحمام أثناء الليل [٢]. عندما شاع الخبر حاول المماليك المعزية قتل شجرة الدر لكن البحرية أنقذوها غيران زوج أيبك الأولى (أم علي) أخذت تحرض على قتلها وأمرت جواريها بقتلها وضربها بالقباقيب إلى أن ماتت، ثم أُلقيت جثتها من سور القلعة إلى الخندق وهي شبه عارية، وبقيت في الخندق ثلاثة أيام قبل أن تدفن [٣]. على هذا الشكل المحزن انتهت حياة كل من أيبك وشجرة الدر.

ومن أهم الأعمال العسكرية في مرحلة المماليك البحرية معركة عين جالوت [٤]٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وفيها انتصر المماليك بقيادة قطز [٥] على التتار ودخلوا دمشق, واستولى قطز على سائر البلاد من الفرات إلى حدود النيل، واستناب نوابه على دمشق وحلب وحماه والساحل وغزة.

وموقعة عين جالوت وصفها أبو الفداء قائلا: ((تضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الشام، ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه)) [٦] .

كما أعادوا إحياء الخلافة العباسية ليضفوا على حكمهم الشرعية وذلك عندما قام بيبرس باستدعاء أحد أبناء العباسيين سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م, وعقد مجلساً حافلاً أثبت فيه نسبه وأعلنه خليفة، ولكن بلا خلافة حقيقية. فلم يكن له ولا لمن جاء بعده أي دور يذكر [١].

١- ا لمنصوري, المصدر السابق، ص٣٩/ النويري, المصدر السابق، ج٢٩، ص٤٥٦/ العيني:, المصدر السابق، ج١، ص١٤٠.

٢- ابن تغري بردي,المصدر السابق، ج٦، ص٣٧٥.

٣- العبادي, المرجع السابق، ص١٤٠/ النويري, المصدر السابق، ج٢٩، ص٤٥٧.

٤- عين جالوت: بلدة لطيفة في بيسان من أعمال فلسطين، للمزيد الحموي: المصدر السابق، ص٢٠٠.

٥- للمزيد ابن إياس,: المصدر السابق، ص٣١٣.

٦- أبو الفدا ء، المصدر السابق، ٤٤.

كان للمماليك البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط حيث تمّ في عهد الناصر فتح جزيرة أرواد سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م كما انتصروا في العام نفسه في وقعة شقجب على التتار[٢].

وفي داخل البلاد أخمدت ثورات العربان في صعيد مصر، وأُخضع ملوك النوبة المسيحية لشمال السودان [٣].

سأكتفي بهذا العرض عن المماليك البحرية؛ لأني أردت فقط إعطاء صورة واضحة عن البحرية، وليس الخوض في تفاصيلها، كما قمت بعرض أسماء السلاطين البحرية ضمن الجدول رقم [١].

٢- المماليك البرجية وأهم ملوكهم:

أراد السلطان المنصور قلاوون أن يكوّن فرقة جديدة من المماليك، يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء, وتكون سنداً له ولأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش، ومن أجل تحقيق ذلك رأى قلاوون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الأجناس التي انتمى إليها مماليك عصره، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج ((جورجيا)) واعتنى بتربيتهم في أبراج القلعة، مما جعل اسم ((البرجية)) يلصق بهم في التاريخ [٤]. وقد تحقق الغرض منها، فكانت سنداً له ولأولاده، لكن بعد وفاة المنصور قلاوون أخذ يزداد نفوذ البرجية كثيراً؛ لأن قلاوون فرض عليهم في زمانه قيوداً استطاع من خلالها الحد من نفوذهم حيث منعهم من التجول

١- Robert Hillenbrand Isamic Art and Architecure, 1991, thamas and Husdson LTd, London, printed in Slovenia, p. 13.

٢- المطوي (محمد العروسي): السلطنة الحقيقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص١٩٤/ شقجب وأرواد، للمزيد ابن كثير , المصدر السابق، ص١١. /الناصر هو الناصر محمد بن قلاوون، للمزيد ابن إياس: المصدر السابق، ص٣٧٨.

٣- سلام (محمد زغلول): الأدب في العصر المملوكي في مصر، دار المعارف، ١٩٧٨، ج١، ص٢٥.

٤- المقريزي, السلوك، ج١، ص٧٥٥/ قاسم (قاسم)- علي (علي): الأيوبيين والمماليك، العين للدراسات، ط٢، ١٩٩٦،ص٢٠٣.

نهاراً، بينما خلفاؤه لم يكونوا بمثل قوته, فسمحوا لهم بالنزول إلى الشارع أثناء النهار، وسمحوا لهم التعرف على وقائع الحياة اليومية والمشكلات [1].

لا شك أن إسراف السلطان المنصور قلاوون في معاملة المماليك الجراكسة وتميزه في المساواة بينهم وبين المماليك القدامى، كان له أثره في إثارة روح البغضاء والتنافر بين الطرفين، وتطور إلى نزاع بين الجراكسة والأتراك، وتطورت مناصبهم حتى وصل أحدهم وهو الأمير برقوق الذي استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م.

في عهد السلطان علاء الدين علي ٧٧٨- ٧٨٣ هـ / ١٣٧٦- ١٣٨١ م الذي لم يتجاوز الست سنوات، وبعد وفاته كان بإمكان برقوق استلام العرش، لكنه تظاهر بالزهد، فجمع الخليفة والقضاة، وكبار الأمراء، وقال بضرورة بقاء العرش في بيت قلاوون، فاستدعى أمير حاجي حفيد الناصر محمد, وكان عمره وقتذاك إحدى عشرة سنة، وأعلن سلطاناً سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م.

أخذ برقوق يمكّن لنفسه، ويوزع الإقطاعات على أعوانه، ويتخلص من معارضيه، وعندما تهيأت الأوضاع أعلن حاجة البلاد إلى رجل قوي، فأعلن الأمراء برقوق سلطاناً، وتلقب بلقب الظاهر، وعزل أمير حاجي من السلطنة. هكذا انتهى بيت قلاوون كما انتهى حكم المماليك البحرية، وبقيام الظاهر برقوق بالحكم ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م، بدأت دولة المماليك البرجية[2].

قامت دولة المماليك البحرية على أسس خالفت الأسس التي قامت عليها دولة المماليك البرجية، وإن اشتركت معها في بعض اتجاهاتها، ويتضح ذلك من الحقائق التالية:

١- تميزت دولة المماليك البرجية بأن سلاطينها جميعاً من أصل جركسي باستثناء اثنين كانا من أصل يوناني هما خشقدم وتمربغا، ومعنى ذلك أن حكام هذه الدولة اتخذوا العصبية العنصرية سلاحاً لإزالة دولة المماليك البحرية[3].

٢- جعل العرش المملوكي مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك.

٣- تدبير المؤامرات, وإحداث الفتن للوصول إلى الحكم[1].

١- علي (علي)، قاسم (قاسم): المرجع السابق، ص٢٠٥.

٢ - زيتون (عادل): تاريخ المماليك، منشورات دمشق، ط٥، ١٩٩٦، ص٧٠.

٣ - ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج١٦، ص٢٥٣/ اعتلى الملك الظاهر خشقدم عرش السلطنة سنة ٨٦٥ هـ وهو الأول من الأورام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر سلطاناً، وقد حكم ست سنين وست أشهر واثنين وعشرين يوماً مات سنة ٨٧٢ هـ. أما تمربغا فقد تولى الحكم سنة ٨٧٢ هـ.

٤- عمل سلاطين المماليك البرجية على حصر هذه المنازعات في دائرة داخلية ضيقة لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد.

٥- عنايتهم بالأدب والعلم.

٦- عدم الالتفات إلى رغبات السكان في شؤون السلطنة من حيث إخبار السلطان وتعيينه [٢].

٧- ضرورة الحصول على موافقة الخليفة والقضاء على تعيين السلطان لتسويغ الأسلوب الذي سلكه لتحقيق هدفه في الوصول إلى الحكم.

أيضاً بالنسبة للمماليك البرجية أكتفي بهذا العرض عن نشوئهم وميزاتهم, أما بالنسبة لملوكهم فقد قمت بعرضهم مع سنة توليتهم السلطنة والانتهاء منها ضمن الجدول رقم [٢].

بلغ عدد سلاطين هذه الدولة المملوكية خمس وعشرين سلطاناً، وبلغ عمرها نحو ١٣٤ سنة، على حين عمرت الدولة البحرية ١٣٢ سنة. فالدولتان متقاربتان في العصر الزمني، ولكل منها تراثه وآثاره.

ثانياً- موظفو البلاط المملوكي:

١- السلطان: صاحب أعلى سلطة، وكان يلقب بألقاب عدة [٣]، وهو دائماً على رأس الجيش الذاهب للحرب [٤].

٢- نائب السلطنة: السلطان الثاني في الدولة، صلاحياته واسعة، وبإمكانه أن يستخدم الجند دون مشورة السلطان ويستطيع إصدار المراسيم، وقد تعرض هذا المنصب للتقهقر عندما استلم الناصر محمد بن قلاوون [٥]. أما النواب في الأقاليم فكانوا يملكون صلاحيات واسعة،ويشرفون على

١-عاشور, العصر المماليكي، ص١٥٣.

٢- طرخان (ابراهيم علي): مصر في دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٣.

٣- هذه الألقاب منها ذات طابع ديني أو سياسي، هدفت إلى تمجيده وتأكيد سلطانه منها سلطان الإسلام والمسلمين، ناصر الأمة المحمدية، هازم الفرنج، الخ. هذا إضافة إلى الألقاب الشخصية مثل الناصر- الظاهر- الخ، للمزيد العمري: المصدر السابق، ص٤٥ وما بعد/ الخطيب (ابراهيم): تاريخ المغول والمماليك، دار شيرين، عمان، ١٩٩٣، ص٩٧

٤ - القلقشندي, صبح الأعشى، ج٦، ص٣٥.

٥ - العمري: المصدر السابق، ص١٦/ حمادة (محمد ماهر): الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٣، ص٢٩

شؤون الجيش والمال والبريد، ويعرضون على السلطان من يصلح في الوزارة والقضاء والجيش...الخ. وقلّما رفض السلطان عرضهم [١].

٣- الوزارة: هي في المرتبة الثالثة مهمتها تدبير جملة من الأمور, وتعيين المباشرين, وكاتب السر، والتوقيع في دار العدل. لكن عليهم مشورة السلطان وعدم الاستقلال بشيء [٢].

٤- إمرة السلاح: صاحبها مهمته حمل السلاح في المجامع الجامعة [٣].

٥- الدوادارية: ماسك الدواة، مهمته تبليغ الرسائل من السلطان، والإبلاغ عن عامة الأمور وتقديم البريد، وأخذ خط السلطان على عموم المناشير والكتب [٤].

٦- الأستاذدار: يوكل إليه أمر جميع البيوت الخاصة بالسلطان كلها.

٧- إمرة جاندار: صاحبها كالمتسلم للباب, وهو يقدم البريد, وإذا أراد السلطان قتل أحد كان على يد صاحب هذه الوظيفة [٥].

٨- نقابة الجيوش: يكون كأحد الحجاب الصغار، فإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً كانت مهمته أن يرسل إليه ويحضره.

٩- الولاة: أصحابها هم أصحاب الشرطة [٦]، وجميع أصحاب هذه الوظائف هم أصحاب الطبقات أو ذوي السيوف الذين يتولوها [٧].

١٠- كاتب السر: أي قراءة الكتب الواردة إلى السلطان, أو كتابة أجوبتها, وأخذ خط السلطان عليها بدار العدل لقراءة قصص الناس, أو التوقيع عليها [٨].

١١- نظر الحبس: له صلاحيات النظر في الإقطاعات وكتابة المراسيم [٩].

١٢- نظر الخزانة: وظيفة كبيرة الشأن، ففي الخزانة مستودع أموال المملكة.

---

١ - العمري:, المصدر السابق، ص١١٥.

٢ - المصدر السابق، ص١١٩/ حمادة (محمد ماهر): المرجع السابق، ص٣٤.

٣ - العمري, المصدر السابق، ص١١٨.

٤ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، م٢، ص١٣٢.

٥ - العمري, المصدر السابق، ص١١٨.

٦ - المصدر السابق، ص١١٩.

٧ - المصدر السابق، ص١١٤.

٨ - المصدر السابق، ص١٢٠.

٩ - المصدر السابق، ص١٣١.

١٣- نظر البيوت: وظيفة جليلة وهي مرتبطة بالأستاذ دارية [١].

١٤- نظر بيت المال: وهو ممول المملكة إلى بيت المال.

١٥- نظر الإسطبلات: يباشر في إسطبل السلطان وله الحديث في أنواع الإسطبلات وكل ما يباع أو يُبتاع [٢]، وجميع هذه الوظائف من ذوي الأقلام [٣].

وهناك وظائف أخرى هي القضاء, والخطابة, ووكالة بيت المال, والحسبة, وهذه الوظائف معروفة ويتولاها الناس من الطبقة الثالثة من طبقات المجتمع ((ذوي العلم)) [٤].

ثالثاً_ الحياة الاقتصادية:

كانت الأوضاع الاقتصادية تتغيّر بين الحين والآخر، خاصة في النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث أصاب البلاد انهيار إداري، واقتصادي، ومن أهم أسبابه الرشوة وارتفاع الأسعار واضطراب النقد [٥].

١- الزراعة:

اهتم السلاطين بالزراعة باعتبارها أساس الحياة الاقتصادية, فاعتنوا بها وأقاموا لأجلها الإصلاحات العديدة من بناء سدود وجسور [٦]ز ,وقد ازدهرت الزراعة لأسباب بشرية واقتصادية كاهتمام السلاطين بالجسور والإصلاح.أما الطبيعية فتمثلت بتمتع البلاد بخيرات كثيرة منها توفر المياه،والهواء المناسب من المتوسط والبحر الأحمر.

---

١ - المصدر السابق، ص١٢١.

٢ - المصدر السابق، ص١٢٢.

٣ - المصدر السابق، ص١١٤.

٤ - المصدر السابق، ص١٢٢.

٥ - المقريزي(أحمد بن علي): إغاثة الأمة بكشف الغمة، تعليق ياسر سيد الصالحين , مكتبة الآداب القاهرة, د.ت ,ص٦٤- ٦٧.

٦ - المقريزي,لخطط، ج٢، ص١٦٦.

إن قوام الحياة الاقتصادية الزراعة، والدارس في هذا المجال يجد أن الدولة هي المالك الأكبر وعلى عاتقها تقع مسؤولية فتح القنوات, واستصلاح الأراضي وبناء الجسور....الخ[١].

٢- الصناعة:

ازدهرت الصناعة في العصر المملوكي نتيجة كثرة الثروات, وتفنن الصناع في الصناعة والاهتمام بالسلع, وعرضها في الأسواق, وبيعها بأسعار جيدة، وبما أن الدولة المملوكية أساساً دولة عسكرية,فقد واجهت تحديات خارجية خطيرة لذلك اهتم المماليك بالصناعات العسكرية والحربية [٢].

٣- التجارة:

كانت التجارة من أهم المظاهر الأساسية للنشاط الاقتصادي المملوكي، وقد ساعد على ذلك عدة عوامل:

١- المكان الجغرافي الذي كانت تحتله دولة المماليك في مصر والشام،وهذا ماأكسبها الثروة والغنى.

٢- إغلاق معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن السابع الهجري و الثالث عشر الميلادي.

٣- انعدام الأمن والسلام في تلك الطرق.

٤- إنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة، والفنادق، والخانات، والأسواق [٣].

رابعاً_ الحياة الاجتماعية:

كانت بنية المجتمع المملوكي طبقية , تتألف من عدة طبقات اختلفت طبقاتها في الصفات, والخصائص, والمظاهر ،كما اختلفت مكانتها في الدولة والمجتمع وما لها من حقوق وما عليها من واجبات ، واختلاف الرابطة كان واضحاً بين الشام و مصر من حيث الدم والجنس والأصل وحتى

---

١ - زعرور (ابراهيم): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي, مطبعة الجمهورية, دمشق, ١٩٩٣, ص ٢٠١.

٢ - الزيدي(مفيد): التاريخ الاسلامي (العصر المملوكي)،دار أسامة, عمان, ٢٠٠٣ ص٢٣٤.

٣- زيتون (عادل): تاريخ المماليك، منشورات دمشق, ط٥, ١٩٩٦ ص١٩٣.

اللون، وهذا ماأشعر في حالات كثيرة المماليك أنهم غرباء عن المجتمع أو لا تربطهم به رابطة قوية, ولم تربطهم به رابطة زواج [1].

وقد قسم المجتمع إلى خمس طبقات:

أ- السلطان والمماليك على رأس السلم الاجتماعي؛ وهم أرباب السيوف،وأصحاب المناصب الهامة.

ب- أرباب الأقلام.

ت- العلماء في حقوقهم القضاء،والخطباء.

ث- التجار.

ج- سائر الناس [2].

أما التجار فكانت تتراوح أحوالهم بين حين وآخر حسب ثروتهم، فأحياناً كانوا طبقة مقربة من السلطان؛ لأنهم المصدر الذي يمده بالمال وأحياناً كانت أموالهم تصادر.

وقد عرف المماليك كثرة الأعياد والاحتفالات،وشارك المسلمون والمسيحيون في إحيائها. وهو نهج سار فيه المماليك على خطى الأيوبيين في العناية بالأعياد والمناسبات والمواسم.

خامساً_ الحركة العلمية:

نشطت الحركة العلمية في دمشق أيام دولة المماليك في القرون الثلاثة التي عاشت فيها هذه الدولة، فأوجدت المدارس والخوانق،وكان هذا النشاط في معظمه يحدث على يد سلاطين المماليك الذين شجعوا الحركة العلمية,وهذا ما يظهر من خلال كثرة المدارس والمساجد المشيدة.

آ- أهم عوامل نشاط الحركة العلمية آنذاك:

١- وقوع كثير من البلاد الإسلامية في يد التتار، فكان لا بدّ للمسلمين أن يلتفوا حول المدافعين عنهم كسلاطين المماليك، وأن يدعموا حكمهم، ومن أهم وسائل تدعيم الملك هي إحياء العلوم والمعارف[1].

---

١ – العمري, المصدر السابق، ص١١٤.

٢- كيال(منير): رمضان وتقاليده بدمشق, دمشق, ط١, ١٩٧٤.ص ١١٥./ نعيسة(يوسف): مجتمع مدينة دمشق, دار طلاس, دمشق, ط١, ١٩٨٦,ج ٢,ص ٦٥١.

٢- قتل العلماء وإحراق الكتب العلمية، فبعد دخول التتار بغداد (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨) م تمَّ قتل وسفك الدماء وإحراق دار الخلافة،مما أدى إلى فرار كثير من العلماء إلى أماكن آمنة.

٣- شعور سلاطين المماليك وولاتهم بمسؤوليتهم عن النهوض بالعلم و العلماء الذين قاموا بالعمل الجاد لإدراك ما فات [٢].

٤- كانت جموع العلماء من الأدباء الذين جاؤوا الشام حاملين معهم كتبهم وعلمهم [٣].

٥- اهتمام السلاطين باللغة العربية، وذلك لعجز لغتهم التركية أو الجركسية عن أداء ما يتطلبه ملكهم الواسع في المجالات المختلفة [٤]

سادساً_ انهيار دولة المماليك:

لم يشهد التاريخ منذ القدم بقاء دولة ما على حال واحدة من العزة والرفعة وإنما تخضع الدول لسنَّة الطبيعة ما بين نشأة وشباب ثم الانتقال تدريجياً إلى مرحلة الشيخوخة، فتتحول فيها قوة الدولة إلى ضعفٍ، وتدب في جسدها الأمراض التي تمهد لسقوطها.

وللدولة المملوكية بعض مظاهر التدهور التي أدت إلى أفول العصر المملوكي، وتعود أسباب هذا التدهور إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية.

١- العوامل الداخلية:

أ- تراجع زعامة المماليك في العالم الإسلامي حيث لم يعودوا قادرين على حماية أرواح المسلمين وممتلكاتهم، وعدم قدرتهم على حماية الدين نفسه والمدن الإسلامية المقدسة، وعدم ضمان سلامة الحجاج [٥].

---

١ - سليم (محمد رزق): المرجع السابق، ص١٧.

٢ - المرجع السابق، ص١٨.

٣ - سلام (محمد زغلول): المرجع السابق، ص١٠٦.

٤ - المقريزي, الخطط، ج٢، ص٣٨٢.

٥ - إيفانوف (نيقولاي): الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨، ص٣٩.

ب- الانحلال الاجتماعي والتسول في مصر والشام الذي انتشر بشكل كبير، وفقدان الموارد الغذائية [١].

ت- مظاهر البذخ التي عاشها الحكام والتي شكلت تحدياً صارخاً للفقراء [٢].

ث- فساد النظام الإداري وفساد النظام الإقطاعي، إضافة إلى التدهور الاقتصادي [٣]،حيث شكل العامل الاقتصادي دعامة أساسية استندت إليها الدولة المملوكية في قيامها واستمرارها، فإذا دخل الضعف إلى هذه الدعامة كان ذلك نذيراً بتداعي الدولة وانهيارها.

ج- انحلال النظام الداخلي, وإهمال الأسس التي قامت عليها دولة المماليك وكثرة الصادرات وفرض الضرائب بكثرة [٤].

٢- العوامل الخارجية:

تعد العوامل الخارجية من الأسباب التي أدت إلى ضعف وانهيار دولة المماليك، بل ساعدت العوامل الداخلية السالفة الذكر في إضعاف وحدة الدولة أمام العدو الخارجي وعلاقات الشرق والغرب منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، وظلت الروح الصليبية قائمة متجددة وعدو رئيس للمسلمين.

انطلقت حملات عسكرية صليبية لمواجهة المسلمين، قادها البرتغاليون الذين استجابوا لنداء البابوية، ونظموا حملات ضد شمالي إفريقية، ووصلوا رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م ووصلوا الهند، وسيطروا على التجارة الشرقية ووجهت البرتغال ضربة قوية للتجارة المملوكية مع الهند. كانت هذه كارثة على الدولة المملوكية التي قضى عليها البرتغاليون من حيث الثروة والقوة العسكرية، ونجحوا في إنهاء السيطرة المملوكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ثم إن تدهور الوضع الاقتصادي, وفقدان الموارد الحيوية الأساسية زعزع قوة ومكانة الدولة، كما جاءت الضربة القوية على أيدي العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول الذي أنهى مكانة

---

١ – المرجع السابق، ص٤١.

٢ – طقوش, المرجع السابق، ص٥٦/ رافق (عبد الكريم): المرجع السابق، ص٢٣.

٣- عاشور (سعيد): بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧، ص٣٥١.

٤ – طقوش, المرجع السابق، ص٥٦٤/ رافق, المرجع السابق، ص٢٠.

المماليك في ((مرج دابق)), وقضى على دولتهم المستقلة في الريدانية، وورث ممتلكاتهم وألقابهم ليصبح حامي الإسلام والمسلمين [1].

هكذا كانت دولة المماليك من الدول المهمة في العصور الوسطى لذلك فإن نشوء هذه الدولة أمر عجيب يكاد أن يكون فريداً في بابه، فالمماليك دولة من جنسيات وقوميات مختلفة جعلوا أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة في بلاد غريبة، وقد أفلح هؤلاء في التصدي للصليبيين وصدّوا إلى الأبد تقدم جيوش المغول، ولولا المماليك لكانت هذه الجيوش قد غيرت مجرى التاريخ والثقافة في غربي آسيا ومصر. وبذلك وفرت هذه الدولة ومهدت للبلاد سبيل النَّعيم بثقافة متصلة وأنظمة سياسية مستمرة.

سيطر المماليك على الحكم نحو مئتين وسبعين سنة من ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م حتى سنة (٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م على بقعة كانت من أكثر البقاع فتناً واضطراباً, وحافظوا طوال تلك الفترة على ميزاتهم الجنسية مع أنهم كانوا بوجه عام قساة دون ثقافة, وأعمالهم في مصر والشام ما تزال تشهد لهم، فكثرت المساجد والمدارس والحمامات التي بنوها مازالت خالدة تشهد لهم بالتطور العمراني والثقافي الذي وصلوا إليه رغم أنهم كانوا رجال حرب بالدرجة الأولى.

---

١ – سوفاجيه (جان): دمشق الشام، تعريب فؤاد أفرم البستاني، تحقيق أكرم العلبي، ط١، ١٩٨٩، ص٨٨/ لابيدوس: المرجع السابق، ص٨٦/ رافق, المرجع السابق، ص٢٠/ طقوش, المرجع السابق، ص٥٦٠/ إيفانوف, المرجع السابق، ص٣١/ فهمي (نعيم زكي): طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص٣٧١.

سلاطين المماليك [1]

	سنة هجرية	السلطان	سنة ميلادية
١	٦٤٨	شجر الدر	١٢٥٠
٢	٦٤٨- ٦٥٥	المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠- ١٢٥٧
٣	٦٥٥- ٦٥٧	المنصور نور الدين علي	١٢٥٧- ١٢٥٩
٤	٦٥٧- ٦٥٨	المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩- ١٢٦٠
٥	٦٥٨- ٦٧٦	ركن الدين بيبرس البيرقداري	١٢٦٠- ١٢٧٧
٦	٦٧٦- ٦٧٨	السعيد ناصر الدين محمد بركة خان	١٢٧٧- ١٢٧٩
٧	٦٧٨	العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
٨	٦٧٨- ٦٨٩	المنصور سيف الدين قلاوون	١٢٧٩- ١٢٩٠

١ – للمزيد عن السلاطين ابن إياس, المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢١٩ وما بعد.
ابن تغري بردي, المصدر السابق، من الجزء السابع وما يليه.
زامبارو: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي حسن، حسن محمود، القاهرة، ١٩٩٢، ج١، ص٦٠ وما بعد.

٩	٦٨٩ -٦٩٣	الأشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠ -١٢٩٣
١٠	٦٩٣ -٦٩٤	الناصر ناصر الدين محمد (المرة الأولى)	١٢٩٣ -١٢٩٤
١١	٦٩٤ -٦٩٦	العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤ -١٢٩٦
١٢	٦٩٦ -٦٩٨	المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٦ -١٢٩٩
١٣	٦٩٨ -٧٠٨	الناصر ناصر الدين محمد (المرة الثانية)	١٢٩٩ -١٣٠٩
١٤	٧٠٨ -٧٠٩	المظفر بيبرس الجاشنكير	١٣٠٩ -١٣١٠
١٥	٧٠٩ -٧٤١	الناصر ناصر الدين محمد (المرة الثالثة)	١٣١٠ -١٣٤٠
١٦	٧٤١ -٧٤٢	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	١٣٤٠ -١٣٤١
١٧	٧٤٢	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	١٣٤١
١٨	٧٤٢ -٧٤٣	الناصر شهاب الدبن أحمد بن الناصر محمد	١٣٤٢
١٩	٧٤٣ -٧٤٦	الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد	١٣٤٢ -١٣٤٥
٢٠	٧٤٦ -٧٤٧	الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	١٣٤٥ -١٣٤٦
٢١	٧٤٧ -٧٤٨	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	١٣٤٦ -١٣٤٨
٢٢	٧٤٨ -٧٥٢	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (مرة أولى)	١٣٤٨ -١٣٥١
٢٣	٧٥٢ -٧٥٥	الصالح صلاح الدين بن محمد بن الناصر محمد	١٣٥١ -١٣٥٤
٢٤	٧٥٥ -٧٦٢	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (مرة ثانية)	١٣٥٤ -١٣٦١
٢٥	٧٦٢ -٧٦٤	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	١٣٦١ -١٣٦٣
٢٦	٧٦٤ -٧٧٨	الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين	١٣٦٣ -١٣٧٧
٢٧	٧٧٨ -٧٨٣	المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	١٣٧٧ -١٣٨١
٢٨	٧٨٣ -٧٨٤	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	١٣٨١ -١٣٨٢

الجدول (١)

دولة المماليك البحرية

سلاطين المماليك[1]

م	سنة هجرية	السلطان	سنة ميلادية
١	٧٨٤- ٧٩٠	الظاهر سيف الدين برقوق (مرة أولى)	١٣٨٢- ١٣٨٨
٢	٧٩٠- ٧٩٢	الصالح حاجي بن شعبان	١٣٨٨- ١٣٩٠
٣	٧٩٢- ٨٠١	الظاهر سيف الدين برقوق (مرة ثانية)	١٣٩٠- ١٣٩٩
٤	٨٠١- ٨١٥	الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	١٣٩٩- ١٤١٢
٥	٨١٥- ٨٢٤	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	١٤١٢- ١٤٢١
٦	٨٢٤	المظفر أحمد بن شيخ	١٤٢١
٧	٨٢٤	الظاهر سيف الدين ططر	١٤٢١
٨	٨٢٤- ٨٢٥	محمد بن ططر	١٤٢١- ١٤٢٢

١ – للمزيد عن السلاطين ابن إياس,المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢١٩ وما بعد.
ابن تغري بردي, المصدر السابق، من الجزء السابع وما يليه.
زامبارو, معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص٦٠ وما بعد.

٩	٨٢٥ -٨٤١	الأشرف برسباي	١٤٢٢ -١٤٣٨
١٠	٨٤١ -٨٤٢	أبو المحاسن يوسف بن برسباي	١٤٣٨
١١	٨٤٢ -٨٥٧	الظاهر جقمق	١٤٣٨ -١٤٥٣
١٢	٨٥٧	المنصور عثمان بن جقمق	١٤٥٣
١٣	٨٥٧ -٨٦٥	الأشرف إينال	١٤٥٣ -١٤٦١
١٤	٨٦٥	المؤيد أحمد بن إينال	١٤٦١
١٥	٨٦٥ -٨٧٢	الظاهر خشقدم	١٤٦١ -١٤٦٧
١٦	٨٧٢	الظاهر يلبغا المؤيدي	١٤٦٧
١٧	٨٧٢	الظاهر تمربغا	١٤٦٨
١٨	٨٧٢ -٩٠١	الأشرف قايتباي	١٤٦٨ -١٤٩٦
١٩	٩٠١ -٩٠٢	محمد بن قايتباي (مرة أولى)	١٤٩٦ -١٤٩٧
٢٠	٩٠٢	الأشرف قانصوه	١٤٩٧
٢١	٩٠٢ -٩٠٤	محمد بن قايتباي (مرة ثانية)	١٤٩٧ -١٤٩٨
٢٢	٩٠٤ -٩٠٥	الظاهر قانصوه الأشرفي	١٤٩٨ -١٥٠٠
٢٣	٩٠٥ -٩٠٦	الأشرف جانبلاط	١٥٠٠ -١٥٠١
٢٤	٩٠٦	العادل طومان باي الأول	١٥٠١
٢٥	٩٠٦ -٩٢٢	الأشرف قانصوه الغوري	١٥٠١ -١٥١٦
٢٦	٩٢٢ -٩٢٣	الأشرف طومان باي الثاني	١٥١٦ -١٥١٧

الجدول (٢)

دولة المماليك البرجية

الفصل الأول

الاحتفالات الدينية

((الأعياد))

أولاً- الأعياد الشرعية:

كانت أهم الأعياد الدينية[1] عند المسلمين وأكبرها هما عيدي الفطر والأضحى؛ لأنهما يرتبطان بركنين من أركان الدين الإسلامي، فيرتبط الأول بالصيام في شهر رمضان, ويرتبط الثاني بفريضة الحج إلى بيت الله الحرام ويحتفل المسلمون جميعاً بهما.

ويذكر القلقشندي أنهما العيدين الوحيدين الذَين لم تشرع الشريعة الإسلامية غيرهما. بحيث يذكر ((*أن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنة عيدان: عيد الفطر وعيد الأضحى*)) [2].

أ- ليالي رمضان:

---

١ - في اللغة العيد عند العرب هو اليوم الذي فيه الفرح والحزن , وهو كل يوم فيه جمع, وأهله من العود والاعتياد والعادة, واشتقاقه من عاد يعود, كأنهم عادوا اليه, او من العادة لأنهم اعتادوه وجمعه أعياد, ولقد كان في الأصل العود فلما سكنت الواو وانكسر ماقلبها قلبت ياء. للمزيد: أبادي(القيروز): القاموس المحيط, بيروت, ١٩٦٠, ج١, ٣٣٠./ ابن منظور: المصدر السابق, ج٣, ص ٣١٨- ٣١٩./ الرضا(أحمد): معجم متن اللغة, دمشق, ١٩٨٠, ج٤, ص ٢٣٧.

٢ - القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤١٦./ مكي(محمد كاظم): المدخل إلى حضارة العصر العباسي, دار الزهراء, بيروت, ١٩٨٨, ص ١١٠.

كان سلاطين المماليك وعامة الناس على اختلاف طبقاتهم يحتفلون بحلول شهر رمضان. يبدأ الاحتفال بشهر رمضان بظهور هلال الشهر الجديد، وقد شهد ابن بطوطة الاحتفال بهذه المناسبة ووصفها وصفاً دقيقاً بقوله: وعاداتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجهائها بعيد الفطر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي, ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو إشارة مهيبة حسنة, فإذا أتى أحد الفقهاء أو أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب،ومشى بين يديه قائلاً: ((*باسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له. ويجلسه في مجلس يليق به فإذا تكاملوا هناك ركبوا جميعاً وتبعهم جميع من في المدينة من الرجال والنساء والصبيان. وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم, وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل القاضي ومن معه، فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع, والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون وهكذا فعلهم في كل سنة* [١])).

ويذكر ابن الحاج أن هذه الفوانيس والقناديل كانت ملونة ومذهبة مبيناً في ذلك لما كان في عهد المماليك من إضاعة للمال وحب للظهور [٢].

إن ملامح ظهور هلال شهر رمضان كانت متقاربة مع اختلاف بسيط [٣] وفي ليالي شهر رمضان كانت أسواق المدن والأقاليم تزدهر احتفالاً بهذه المناسبة, وقد كانت المطاعم والمطابخ تظل مفتوحة طوال الليل لكي تستقبل زبائنها [٤]. كما كانت تنتعش أسواق الحلويات وأسواق الشماعين، فتصنع التماثيل السكرية التي كانت تعرف باسم العلاليق (عَلاقة)؛ لأنها كانت تُعلق بخيوط على أبواب الحوانيت [٥].

كان سوق الشماعين في ليالي هذا الشهر يتلألأ بأضواء مختلفة من أنواع الشموع، وقد كانت تباع بهذا السوق كميات كبيرة قد تصل إلى عشرة أرطال، أما الشموع الضخمة كانت تصل إلى ما

---

١ – ابن بطوطة(محمد بن عبد الله): تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، القاهرة, ١٩٨٥, ص٢٦-٢٧.

٢ – ابن الحاج(أبو عبد الله محمد بن محمد): المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات, القاهرة, ١٩٢٩, ج٢، ص٢٥٧.

٣ – عاشور, المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك, القاهرة, ١٩٦٢، ص١٨٥.

٤ – المرجع السابق، ص١٨٥.

٥ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص١٠٦.

يزيد القنطار، حيث كانت تؤجر لكي تستخدم في موكب صلاة التراويح، وقد كان هذا الموكب يجتمع حوله إحدى الشموع الضخمة يجرها الأولاد على عجلات، وقد أمسك كل منها بفانوسه وهم يرددون أغاني دينية، ويطوف الموكب المضيء البلد من بعد المغرب حتى موعد صلاة العشاء والتراويح [١].

كما تذكر المصادر السحور في ليالي رمضان حيث يطوف (المسحراتي) بطبلته يردد الأغاني وحوله الأطفال منادياً على أصحاب البيوت [٢].

ومن عادات شهر رمضان هو الاحتفال بختم القرآن الكريم بأحد المساجد, ويتمثل هذا الاحتفال في اجتماع المؤذنين للتكبير ثم يؤتى بفرس يركبها القارئ الذي تولى ختم القرآن ويذهب في موكب مع التهليل والتكبير [٣] ويستنكر ابن الحاج هذه المظاهر من اللهو واللعب في هذه المواسم الدينية المعظمة التي هي مقام للخشوع لا للهو والتكلف.

ومما كان يقوم به سلاطين المماليك في هذه المناسبة التي تعد من المناسبات الكبيرة لديهم، فإذا ما اقترب الشهر قام السلطان بإطلاق سراح المساجين من السجن, كما استغل المماليك ليالي رمضان كفرصة لأعمال البر والإحسان وتقديم المعونة للفقراء والمحتاجين. ويذكر المقريزي أن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري كان (يطعم في كل ليلة من ليالي شهر رمضان خمسة آلاف نفس [٤]). وكان في أول ليلة من شهر رمضان يرتب بمصر والقاهرة وأعمالها مطابخ يطبخ فيها أنواع الأطعمة وتفرق على الفقراء والمساكين [٥].

ويوزع الطعام ضمن حفل حاشد تصاحبه الموسيقى ويقع السير بها في شوارع المدينة (لإشهار أمرها بين الناس) [٦]. يرى الناس كرم السلطان ويزداد ولاءهم له.

ويلاحظ هنا ناحية وهي ثراء سلاطين المماليك البحرية من خلال ضخامة الصدقات والخلع التي يقدمها السلاطين في هذه المناسبات الدينية، ومن ناحية ثانية الاعتماد على الإبهار في كل ذلك

---

١ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠١.

٢ – ابن الحاج, المصدر السابق ج٢، ص٢٥٥.

٣ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج٢، ص٣٠٠.

٤ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٦٣٩.

٥ – ابن عبد الظاهر, الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص٢٠٣.

٦ – محمود سليم رزق, المرجع السابق، ص٣٣٣.

وهو ما يسعى إليه سلاطين المماليك في إطار الظهور بمظهر حماة الإسلام والاهتمام بكل المناسبات الدينية والإسلامية.

ولم تقتصر الصدقة على المعدمين من العامة بل وصلت إلى الأمراء والعلماء، فيذكر المقريزي أن السلطان الملك الأشرف خليل في رمضان سنة تسعين وستمائة أنعم على علم الدين سنجر المنصوري المعروف بأرجواش خبزاً وخلع عليه وأُعيد إلى ولاية قلعة دمشق [١].

كما كانت تصرف للعلماء والأمراء رواتب إضافية في شهر رمضان وكل ذلك يدخل في إطار تدعيم السلطان لعلاقته مع مماليكه والعلماء والقضاة الذين يمثلون ركيزة قوة السلطان وشرعيته [٢].

غير أن هذه العطاءات والتوسعات كانت مرتبطة بخزانة السلطان, فإذا قلَّت أموال الدولة انقطع العطاء. ففي رمضان سنة سبع مئة وخمس وأربعين للهجرة في عهد الملك الصالح إسماعيل ابن محمد ونظراً لتوقف أحوال الدولة في كل شيء عجز الوزير عن لجم المعاملين والمماليك، فأمر بقطع رواتب الأمراء والمماليك, وأرباب الوظائف [٣].

كما اهتم المماليك في قراءة الأحاديث الشريفة وكانوا يحتفلون بختم الحديث في الثلث الأخير من شهر رمضان, ويحتفل به احتفالاً كبيراً, ويوزع في نهاية الاحتفال الهدايا والخلع [٤].

٢- عيد الفطر

عيد الفطر من المناسبات الدينية المهمة عند جميع المسلمين لكن المماليك كان لهم عادات خاصة بهم في الاحتفال بهذا العيد, وكان له آثار سلبية وإيجابية وضحها عدد من المؤرخين.

وقد استعد عامة الناس لهذا العيد منذ الأيام الأخيرة من شهر رمضان وذلك بتحضير أطباق متعددة من الحلوى التي اعتاد الناس على إعدادها. أما في ليلة العيد فيقوم الناس بإعداد ملابس العيد،ويتوجه الرجال مع طلوع النهار لأداء صلاة العيد في موكب كبير وهم يهللون ويكبرون حتى يصلوا إلى المسجد، ثم تتبادل البيوت التهنئة بالعيد ويتبادلون الحلويات،والكعك ،فمنهم من كان يصنعه بنفسه ومنهم من كان يأتي به جاهزاً.

---

١ – ابن تغري بردي, النجوم الزاهرة، ج٨، ص١١.

٢ – العمري, مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص٤٩.

٣ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٦٧١.

٤ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٨٩.

ويَعدُّ ابن الحاج أن هذا التصرف هو عيب على المسلمين؛ لأنهم كانوا يشترون الكعك الذي يصنعه اليهود [١]. لكننا نستطيع أن نعد ذلك أنه مظهر من مظاهر الاندماج الاجتماعي بين السكان. ومن عادات هذا العيد أيضاً أن يخرج الناس لزيارة القبور [٢]، ثم يتوجهون إلى التنزه في أماكن النزهة والاصطياف, وكان يصحب ذلك مرح ولهو،وهذا ما كان ابن الحاج يعيبه على الناس كالتوجه إلى اللهو وترك إحياء ليلة العيد بالقرآن, والابتعاد عن الدين لملذات الدنيا. ومن العادات أيضاً استعمالهم السمك المشقوق في هذا اليوم [٣].

أما بالنسبة للاحتفالات الرسمية بهذا العيد، فقد اعتاد الأمراء الدخول على السلطان في ليلة العيد ليقدموا له تهاني العيد، ويقوم ناظر الدولة بإعداد الخلع [٤] وكان السلطان يخرج يوم العيد في موكب كبير يدل على البذخ والثراء وإبراز قوة الدولة وسلطانها.

وفي ليلة العيد كان السلطان يخرج بصحبه كبار الدولة لأداء فريضة صلاة العيد وسماع الخطبة. وعند الانتهاء من الصلاة يعود السلطان إلى قصره ليتقبل التهاني ويقدم الخلع والهدايا لكبار الدولة.

ومن عادات العيد كما في حلول شهر رمضان القيام الإفراج عن المساجين من الأمراء للظهور بمظهر التسامح ((*في يوم عيد الفطر تمّ الإفراج عن الأمير أرغون الأسعردي والأمير أروس المحمودي.....*)) [٥].

٣- عيد الأضحى:

يكون في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ويوافق عيد النحر آخر يوم من أيام الحج.

وفي عيد الأضحى كان البعض يجهزون الأضاحي منذ ليلة العيد، كما كان بعضهم يقضي هذه الليلة في تجهيز ثيابه الجديدة [١]. وجرت عادات بعض الناس على عدم ذبح الأضاحي في العيد بالرغم من قدرتهم على ذلك، وكانوا يكتفون بشراء اللحوم من الجزارين [٢].

---

١ – المقريزي,السلوك, ج٢، ص٩٨./ ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٨٧.

٢ – عاشور, المجتمع المصري، ص١٨٤.

٣ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج١، ص٢٨٨.

٤ – عاشور, المجتمع المصري، ص١٩٠.

٥ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٨٩.

وفي صباح يوم العيد يخرج الناس لأداء صلاة العيد كخروجهم يوم عيد الفطر، ويتهادون اللحم مثل تهاديهم الحلويات في يوم عيد الفطر، وبعد الفراغ من صلاة العيد يتوجه العامة إلى المقابر لزيارة القبور, وهذا المظهر استنكره ابن الحاج كما انتقد ابن الحاج خروج الناس بزينة كاملة إلى المقابر والشوارع واعتبره منافي للإسلام [٣].

ويلاحظ هنا أن الاحتفال بعيد الأضحى والعادات المرتبطة لدى العامة مثلها مثل عيد الفطر يطغى عليها طابع اللهو والعبث , ونرى أن المماليك لم يشاركوا العامة في احتفالاتهم وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على عدم الاندماج بين العامة والمماليك.

أما عن الاحتفالات الرسمية بعيد الأضحى، فقد حرص المماليك على الاهتمام بمثل هذه الأعياد الدينية لذلك كان السلطان يخرج يوم العيد مع كبار أمرائه ومماليكه في موكب عظيم شبيه بموكب عيد الفطر يطوف المدينة [٤]. وبعد الانتهاء من الصلاة يتوجه لذبح الأضاحي وتوزيع اللحم والخلع والهدايا [٥].

حرص المماليك أشد الحرص على إغداق الهدايا على مماليكهم في أيام العيد, فقد كان الأمير قوصون الناصري سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١م ينعم على مماليكه وحاشيته في كل عيد بألف رأس غنم وثلاثمئة رأس بقر [٦]. وهذا يدل على ناحية هامة وهي ثراء المماليك من خلال ضخامة هذه الهدايا والخلع.

٤- موكب عيدي الفطر والأضحى:

احتفل سلاطين المماليك رسمياً بعيدي الفطر والأضحى، وقد اعتاد السلاطين الركوب في المناسبات الدينية الإسلامية في مواكب كبيرة، ويتميز موكب العيدين بنظام وترتيب معين, وقد كان

---

١ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٨٣، ٢٩٠.

٢ – قاسم عبده قاسم, بعض مظاهر الحياة اليومية, القاهرة, ١٩٦٨ ص٢٩٣.

٣ – ابن الحاج, المصدرالسابق ,ج٢، ص٢٨٦.

٤ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٥٢١.

٥ – ابن ظهيرة, الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة, تح مصطفى السقا, القاهرة, ١٩٦٩، ج٢، ص١٩٩.

٦ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٨، ص٣١٤.

على مراحل يبدأ بخروج السلطان لأداء صلاة العيد في موكبه العظيم ثم رجوعه حيث سماط العيد وآخره توزيع الهدايا.

آ- هيئة موكب العيدين:

كان السلطان يخرج في أول يوم من العيد, وينزل إلى الميدان و يصلي صلاة العيدين ويكون نزوله في يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر الذي لا يخرج منه إلا في مثل هذه المناسبات [١]. ويكون قد أُعد للسلطان بهذا الميدان دهليز سلطاني ويكون هذا الدهليز على أكمل ما يكون من الهيئة [٢].

وكان سلاطين المماليك البحرية قد اختاروا ميدان العيد لأداء صلاة العيدين وهو مكان متسع يتوفر فيه عنصر الفرجة وإظهار هيئة السلطان في موكب العيد,وذلك على عكس سلاطين مماليك البرجية الذين غيروا مكان أداء صلاة العيدين إلى جامع القلعة, ويشير هذا التغيير إلى خوفهم من المؤامرات والدسائس التي كان يحوكها بعض الأمراء، وهذا يدفعنا إلى القول: إن الاستقرار السياسي كان عاملاً من العوامل المساعدة على بروز المواكب السلطانية بأبهة. وفي ميدان العيد يحضر خطيب جامع القلعة فيخطب ويصلي صلاة العيد [٣].

وبعد الانتهاء من سماع الخطبة وصلاة العيد يركب السلطان ليعود إلى الإيوان الكبير بالقلعة [٤] ويكون ذلك بموكب ضخم يشق شوارع القاهرة وسط اندهاش العامة لعظمة وهيبة السلطان وموكبه.

وقد كان الفرس الذي يمتطيه السلطان في هذا الموكب يقع اختياره من الإسطبل السلطاني خصوصاً لهذه المناسبة، ويختاره السلطان بنفسه ليوم العيد [٥] وزينة الفرس تكون عليها رقبة من أطلس؛ أي حرير أصفر مزركش بالذهب بحيث لا يُرى الحرير لكثرة الذهب عليه وتجعل على رقبة

---

١ – العمري, مسالك الأبصار، ص٧٣/ المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٢٩.

٢ – الدهليز: هي خيمة سلطانية خاصة بركوبه في الموكب. للمزيد القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦.

٣ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٨، ص١٢.

٤ – العمري, مسالك الأبصار، ص٧٣/ المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٢٩.

٥ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٦٥٥.

الفرس في العيدين والميادين من تحت أذني الفرس إلى نهاية عرفه، ويكون السلطان على رأسه العصائب السلطانية [١].

كما تُحمل أمام السلطان الجتر أو كما تسمى المظلة، والغاشية [٢] ويحمل الجتر أحد أكابر المقدمين الذين يكونوا بصحبة السلطان وإلى جانبه في هذا الموكب، أما الغاشية فيحملها موظفون خاصون يسمون الركبندارية.

يلاحظ ظهور اللون الأصفر كلون مميز للدولة المملوكية, فكل الأعلام والرايات من الحرير الأصفر.

ويكون في صحبة السلطان في هذا الموكب الضخم عدد من كبار الأمراء وأرباب الوظائف والسلاح كلهم خلفه, وحوله, وأمامه الطبردارية؛ وهم الذين يحملون الفؤوس ويمشي في مقدمة موكب السلطان اثنان من أوشاقيته أو كما يسميان أيضاً الجفته [٣] وهذا الأوشاقيان من الذين يتولون الخيل للسلطان؛ أي يهتمان بخيل السلطان في المواكب، ويكونان متقاربين في السن والشكل وعليهما ثياب من حرير أصفر وعلى رأسهما قبعتان من زركش, ويركبان على فرسين أشهبين برقبتين مشابهتين لخيل السلطان،والهدف من ذلك تضخيم لموكب السلطان.

ونرى أن الموسيقى كانت حاضرة في كل احتفالات المماليك،غير أن نوع الموسيقى كان يختلف باختلاف المناسبة، فأرباب الملاهي كانت من مميزات الاحتفالات الشعبية لديهم، في حين كانت الموسيقى التي تصاحب المواكب السلطانية من نوع الموسيقى الجيشية التي كانت تقوم بها الفرقة الموسيقية السلطانية [٤] لإيقاع الرهبة في نفوس العامة.

كما كان يرافق السلطان من الموظفين الذين كانوا في خدمته أمير الركب، وهو المسؤول عن طائفة الناس التي تحمل المشاعل أمام السلطان في العيد, وإلى جانبه كبار موظفي الدولة الذين كانوا

---

١ – السيوطي, ج٢، ص١٢٧/ العصائب: عدة رايات منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأس خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق. للمزيد القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٨/ العمري, مسالك الأبصار، ص٣٣.

٢ – الجتر: هو من بقايا الدولة الفاطمية، في حين تعتبر الغاشية من خصائص الدولة المملوكية. للمزيد العمري, مسالك الأبصار، ص٣٣.

٣ – السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٣٣/ العمري, مسالك الأبصار، ص٣٣/ القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦.

يصحبون السلطان ويكونون في خدمة موكبه،ونجد الخليفة العباسي المقيم في القاهرة يركب إلى جانب السلطان في موكب الأعياد [١].

ب- سماط العيد:

بعد عودة السلطان إلى عرشه يمد سماطاً سلطانياً عظيماً[٢]، ويحتوي هذا السماط كل أنواع الأطعمة الفاخرة, والحلويات, والمشروبات الفاخرة, ويكون هذا السماط مكلفاً حيث إنه يبلغ في أغلب الأحيان أكثر من خمسين ألف درهم في كل يوم عيد فطر [٣].

وقد كان للسماط السلطاني آدابه وترتيبه ونظامه, فيكون مكان السلطان على رأس السماط في حين يجلس الأمراء على يمين ويسار السلطان على قدر مراتبهم في القرب من السلطان [٤].

فنظام الجلوس على السماط يعكس الهرمية في دولة سلاطين المماليك وهو ما يشير إلى أن كل شيء كان منظماً.

ج- خلع العيد:

يتم توزيع الخلع في آخر مرحلة من مراحل الاحتفال على كبار الأمراء وموظفي الدولة و توزيع الخلع ليس من استحداث المماليك, وإنما هو عمل موروث عن الدول السابقة لدولة المماليك.

وقد كانت الخلع تختلف باختلاف مراتب الأمراء [٥].

ويهتم السلطان بالخلع على الأمراء الذين كانوا في خدمته في موكب العيد, فيخلع على حامل الجتر, والسلاح وأستاذ دار، والجاشنكير, وكثير من أرباب الوظائف الذين كان لهم خدمة في العيد[٦].

---

١ – النويري, المصدر السابق، ج٣، ص٣٦/ المقريزي, السلوك، ج١، ص٤٥٩.

٢ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٢٩./ الحجي(حياة ناصر): أحوال العامة في حكم المماليك, شركة كاظمة للنشر, ط١, الكويت, ١٩٨٤, ص ٣٢٢.

٣ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢١١.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٥٦.

٥ – ابن شاهين, زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك, باريس, ١٨٩٤، ص٧٧./ ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص١٩٩.

٦ – العمري, مسالك الأبصار، ص٧٣. / القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦.

ومن المفيد الإشارة في نهاية هذا البحث إلى إمكانية حدوث بعض الاستثناءات في موكب العيدين، من تخلف السلطان على الركوب في العيدين, فالمعروف أن سلاطين المماليك كانوا دائماً في استعداد لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية المتمثلة في الخطرين المغولي والصليبي، وقد كان ذلك يتوافق أحياناً مع موعد حلول عيدي الفطر والأضحى, فيكون السلطان غائباً عن عاصمة ملكه؛لأنَّ يضطر إلى القيام بمراسم العيد في الشام أو الحصن، ولكن لا يكون بهيبة كبيرة، وعلى العكس كانت في بعض الأحيان تتضاعف الاحتفالات إذا حصل توافق يوم العيد مع يوم نصره على العدو, فيكون العيد عيدين [١]. وبالتالي فإن ركوب السلطان يوم العيد مرتبط بالأوضاع السياسية.

ثانياً- الاحتفالات غير الشرعية:

لم تقتصر احتفالات المماليك على عيدي الفطر والأضحى، وإنما كانت هناك مناسبات ومواسم دينية سماها بعض المؤرخين بالأعياد غير الشرعية.

وقد احتفظت دولة المماليك ببعض هذه الأعياد وألغوا بعضها الآخر, ولم يُبطلوا إلا ما كان منها ذا طابع شيعي.اعتنى المماليك بحكم الرخاء الاقتصادي والسياسي الذي تمتعت به دولتهم بإحياء هذه الأعياد التي ظهرت فيها مظاهر البذخ وحب الظهور بمظهر التمسك بالشعائر الدينية وتثبيت الجاه وإظهار النفوذ عن طريقها. وتتمثل هذه المواسم في الاحتفال برأس السنة الهجرية والمولد النبوي، وإحياء عدد من الليالي في السنة الهجرية وهي أول ليلة من شهر رجب وليلة المعراج التي توافق ليلة السابع والعشرين من نفس الشهر, وليلة النصف من شعبان والتي سميت بليالي الوقود.

١- إحياء ليلة رأس السنة الهجرية:

يعد اليوم الأول من محرم من السنة الهجرية يوماً معظماً؛ لأنه غرة السنة ومفتاحها، وقد اقتصر احتفال سلاطين المماليك بهذه المناسبة على طلوع الأمراء لتهنئة السلطان بالقلعة [٢]. كما يذهب إليه القضاة الأربعة والخليفة ليهنئوه بالعام الجديد, وكذلك تهنئته بأول كل شهر، ويقرر السلطان بهذه المناسبة زيادة الأرزاق لأرباب الرواتب دون ذكر لخروج السلطان في موكب خاص بهذا الموسم.

---

١ – بيبرس المنصوري, التحفة الملوكية، ص١٦٨. / النويري, المصدر السابق، ج٣، ص١٩١.

٢ – قاسم عبده قاسم, بعض مظاهر الحياة اليومية، ص٣٦.

أما عن العادات الشعبية التي ارتبطت بهذا الموسم, فيذكر ابن الحاج أن النساء كن يشترين اللبن في أول ليلة من شهر المحرم [١] تفاؤلاً بذلك؛ لأن السنة تكون بيضاء.

٢- إحياء الموالد:

كان الاحتفال بهذه المناسبة فخماً يتناسب مع ما عرف عن المماليك من رفاهية، وكان السلاطين يحرصون على المشاركة في هذه المناسبة، والموالد عند المماليك لا تعني المولد النبوي فحسب بل أيضاً موالد آل بيت الرسول والأولياء الصالحين، لكن المولد النبوي كان أهمها.

ويبدأ الاحتفال بالمولد مع مطلع شهر ربيع الأول, ويستمر حتى الثاني عشر منه، والاحتفال بالموالد موروث عن الفاطميين لكن المماليك غيروا بعض المعطيات والظروف على اعتبار المماليك كانوا من السنة [٢].

وباعتبارهم ورثة الدولة الأيوبية يمكن أن نفسر تواصل الاحتفال بالمولد النبوي في عصر المماليك؛ لأن الأيوبيين الذين أطاحوا بالخلافة الفاطمية في مصر لم يكونوا صارمين في إلغاء الأعياد الفاطمية.

وجرت العادة في هذا المولد على إقامة خيمة ضخمة وكبيرة تسمى خيمة المولد [٣] وعند أبواب الخيمة حوض جلدي مليء بعصير الليمون والسكر،يقف عليه عدد من الخدم يناولون الناس أكواب الليمون والسكر.

يبدأ الاحتفال الرسمي ظهراً, ويستمر حتى ساعة متأخرة، حيث يبدأ الاحتفال بقراءة القرآن، ثم يقوم الوعاظ بدورهم, ويأخذ كل منهم نصيبه من النقود والملابس التي يمنحها لهم السلطان. وبعد صلاة المغرب تفرش موائد الحلوى على اختلاف ألوانها ثم يبدأ المنشدون في مدح الرسول (ص) حتى

---

١ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج١، ص٢٧٨. / المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٢.

٢ – Catherine Mayeur Joauen, gens de la maison et mouleds d'Egypte ,1991. P. 314.

٣ – أول من صنع الخيمة السلطان قايتباي وبلغت كلفتها (٣٠) ثلاثون ألف دينار وقيل في وصف خيمة المولد هذه أنها زرقاء اللون على شكل قاعة فيها ثلاثة أواوين وفي وسطها قبة على أربعة أعمدة. للمزيد عادل زيتون, تاريخ المماليك، ص١٤٦.

ثلث الليل [١]. وبعد ذلك يأتي الخليفة والقضاة والجند والأمراء فئة بعد أخرى ليقبلوا الأرض أمام السلطان فينعم عليهم جميعاً بالخلع.

أما السماع فيبدأ من ثلث الليل ويستمر حتى الفجر، فتأتي فئات الفقراء فئة بعد أخرى ومعهم رئيس المغنين ويستمرون بالرقص والسلطان جالس ويده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه, والخاذندار يأتيه بكيس بعد كيس، حتى قيل: إنه فرق في الفقراء ومشايخ الصوفية والزوايا في تلك الليلة أكثر من أربعة آلاف دينار. كذلك بلغ نصيب بعض المغنيين في ليلة المولد من السلطان ألف درهم، وفي صباح المولد يوزع السلطان القمح على الزوايا والربط.

اعتاد كثير من سلاطين المماليك الاحتفال بالمولد النبوي في الدور السلطانية الخاصة بزوجات السلطان، وذلك في صبيحة يوم الاحتفال الكبير،و يبدو أن هذا الاحتفال لم تكن له صفة رسمية فلا يحضره أحد من القضاة أو مقدمي الألوف.

هذا هو الاحتفال الرسمي للمولد، لكن العامة كانوا يحتفلون على طريقتهم فيقيم الناس الحفلات في بيوتهم، حيث يبدأ الاحتفال بقراءة القرآن الكريم,ويليه المنشدون الذين تصاحبهم الآلات الموسيقية، وينشدون كثيراً في مدح الرسول الكريم (ص)، ويلي المنشدون حلقات الذكر التي يظهر فيها تأثير الصوفية ((*يقوم الواحد منهم و يرقص, وينادي, ويبكي, ويتباكى ,ويتخشع, وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته*)) [٢].

تطل النساء من الأسطح لمشاهدة الاحتفالات أمام المنازل المجاورة، كما كانت تقام داخل البيوت حفلات نسائية تلتف النساء حول إحدى محترفات الوعظ لسماع حديثها الديني [٣].

ومن الطريف أن البعض كانوا يحتفلون بالمولد النبوي بغية استرداد الهدايا والنقود التي كانوا قد أهدوها للآخرين في المواسم والأفراح، وهذا ما يكشف أن المماليك كانوا يتبادلون النقود والهدايا في هذه المناسبات [٤].

---

١ – عاشور, المجتمع المصري، ص١٧٧.

٢ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج٢، ص٤.

٣ – قاسم عبد قاسم, بعض مظاهر الحياة اليومية, ص٢٩٥.

٤ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج٢، ص٢٥.

٣- زيارة القبور والأولياء الصالحين:

ارتبطت زيارة القبور في الدولة المملوكية أساساً بالأعياد والمواسم الدينية وخاصة ارتباطها ببعض مظاهر الطرب واللهو. وزيارة القبور هو تقليد موروث عن الدولة الفاطمية، فالمعروف أن الدولة الفاطمية في إطار نشر المذهب الشيعي كان اعتناؤها كبير ببناء المشاهد والزوايا وإحياء موالد آل البيت، وقد تواصل ذلك في الدولة المملوكية، فقد ظل الناس يخرجون لزيارة القبور في عيدي الفطر والأضحى [١].

وقد تواصل اهتمام سلاطين المماليك بترميم هذه المشاهد والأضرحة (فقد جدد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عمارة مشهد السيدة نفيسة (رض) ووضع به المحراب وجدد عمارة قبة الإمام الشافعي...) [٢].

وقد عدَ قبر الإمام الشافعي من أشهر مزارات المقابر, ويمكن أن نفسر اهتمام سلاطين المماليك بهذه المشاهد كطريقة لاستمالة العامة, وكسب ولائهم لتعلقهم بهذه المشاهد وتبركهم بها.

وإلى جانب اعتناء المماليك بصيانة المشاهد والأضرحة قاموا بإنشاء الزوايا, فالسلطان الظاهر بيبرس البندقداري بنى زاوية للشيخ بن أبي بكر بن موسى ببعلبك وعدة زوايا خارج القاهرة وكان يتبرك بها ((*لوصار ينزل إليه, في الأسبوع مرة أو مرتين*)) [٣].

كما حذا حذوه عدد من السلاطين ولعل اهتمام سلاطين المماليك وأمرائهم بتشييد الزوايا يعود لاعتقادهم وتبركهم بشيوخها, وأيضاً للظهور أمام العامة بمظهر المهتمين بهذه المعتقدات التي كانت تسيطر على عقول العامة، ولتكون بذلك وسيلة لجذب العامة وكسب ولائهم، وصرف نظرهم عن أمور الدولة.

وقد ارتبطت بزيارة القبور والزوايا عادات وصفها ابن الحاج بالذميمة؛ لأنها تتنافى مع آداب زيارة القبور كزيارة المقابر لمدة طويلة وإيقاد الشموع [٤].

وعلى الرغم من أن زيارة المقابر مرتبطة بالموت, فقد ارتبطت أيضاً بالأعياد والاحتفالات فكانت فراراً في الأعياد؛ إذ يخرج العامة لزيارة قبور ذويهم وجعلها أماكن للهو والتنزه, ففيها تختلط

---

١ – ابن الزيات, الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، القاهرة, ١٩٦٦, ص٩٦– ١٠٢.

٢ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، س٤٨٥.

٣ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٣٠/ ابن الحاج، المصدر السابق, ج١، ص٢٩٦.

٤ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٥١.

النساء بالرجال، وتتحول من مقبرة إلى متنزه للهو وتتنافى هذه العادات مع ما يذكره ابن الحاج عن آداب الزيارة [١].

٤- ليالي الوقود:

ورث المماليك الاحتفال بهذه الليالي عن التقاليد الفاطمية، فقد عرف هؤلاء بإحياء ليالي الوقود دعاية لمذهبها الشيعي واستمالة للعامة [٢]. وسميت بليالي الوقود؛ لأنهم خصوا هذه الليالي بزيادة الوقود للقناديل, وقد كان الاحتفال بها من أبهج الاحتفالات وتظهر فيها أنواع البر والإحسان، كما حرص العامة على إحياء هذه الليالي بالصيام وزيادة وقود القناديل [٣].

وهذه الليالي هي:

آ- ليلة أول شهر رجب: وهي ليلة أول الأشهر الحرم ومن مظاهر الاحتفال في هذه الليلة كثرة الإنفاق وشراء الحلويات للأطفال, وهي تماثيل على هيئة الخيول والسباع والقطط, وكان العرف يحتم على الناس مهاداة أقاربهم وأصهارهم الحلوى، وفي المساء يجتمع كلٌّ من النساء والرجال حول القراء والمنشدين الذين يقرؤون وينشدون بهذه المناسبة [٤].

ب- ليلة الإسراء والمعراج: وهي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب والعادة فيها الاجتماع في المسجد، وزيادة وقود القناديل، ويرتلون القرآن وينشدون، كما كانوا يفرشون البسط والسجادات داخل المساجد, وكانوا ينشرون الأواني والأباريق التي امتلأت بالمشروبات التي اعتاد الناس شربها في هذا

---

١ - ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٩٦/ ابن الزيات, الكواكب السيارة، ص١٦/ لمقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٢٣/ قاسم عبده قاسم, بعض مظاهر الحياة اليومية، ص٢٩.

٢ - المقريزي, الخطط، ج١، ص٤٩١.

٣ - المقريزي, الخطط، ج١، ص٤٩٠.

٤ - ابن الحاج, المصدر السابق، ج١، ص٢٩١.

الموسم, ويستمعون إلى مشاهير قراء عصرهم, وهم يرتلون آيات القرآن الكريم، وهذه الظاهرة انتقدها ابن الحاج كثيراً نتيجة اختلاط النساء والرجال وخروج النساء بأبهى حلة [١].

ج- ليلة النصف من شعبان: إحياء هذه الليلة يكون بالصيام وشراء الحلويات وتنويع المأكولات[٢]. وكما كانت العادة في ليلة أول شهر رجب, وليلة الإسراء والمعراج كان العامة يخرجون رجالاً ونساءً إلى المساجد حيث تضاء القناديل والشموع حتى يتحول ليلهم إلى نهار، والاجتماع بالمسجد ليس فقط للذكر بل يكثر فيه اللغط واللهو، كما كان يتوجه الناس لزيارة القبور ليلاً، ومن عاداتهم في هذه الليلة إكساء المقابر بالثياب وتحليتها بالذهب [٣].

أما عن الاحتفالات الرسمية بهذه المواسم, فلم تذكر المصادر عن مشاركة السلطان في إحياء هذه الليالي مما يؤكد على طابعها الشعبي . بينما ابن الحاج تحدث عن حضور الوالي وبعض أعوان الدولة ربما كان حضورهم بأمر من السلطان، وهي المشاركة الرسمية في هذه الاحتفالات[٤]. كما نلاحظ أنه في هذه الليالي ظهر اللهو والطرب وابتعدوا عن الجانب الروحي.

٥- موقف المماليك من احتفالات الشيعة:

اهتم سلاطين المماليك ببعض أعياد الشيعة وألغوا بعضها وذلك لاعتبارهم سنة, وغيروا بعض العادات, ومن أهم ما قاموا به: تواصلوا في الاحتفال بيوم عاشوراء لكن الاحتفال كان مقتصراً على المستوى الشعبي ولم يأخذ صفة رسمية.

ويوم عاشوراء هو من أعياد الشيعة وقد كان الفاطميون باعتبارهم شيعة يتخذون من هذا اليوم يوم حزن [٥] فقد كانوا يبكون حزناً على الحسين بن علي الذي استشهد ذلك اليوم [٦].

---

١ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٩٥.

٢ – سعيد عاشور, المجتمع المصري، ص١٨٤.

٣ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج١، ص٣٠٨– ٣١٢/ المقريزي, الخطط، ج٢، ص١٠٣.

٤ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج١، ص٣٠٩.

٥ – المقريزي:, الخطط، ج١، ص٤٩٠/ ابن الحاج, المصدر السابق, ج١، ص٢٩٠/ ابن تغري بردي, المصدر السابق ج٤، ص٥٧.

٦ – سعيد عاشور, صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى، القاهرة, ١٩٦٨ ص١٦٤.

أما المماليك السنّة, فقد حولوا هذا العيد وجعلوه يوم فرح وسرور يضعون فيه الحلوى, ويبالغون في إظهار السرور [١] كما كان من عادات ذلك اليوم ذبح الدجاج وطبخ الحبوب و شراء البخور والتبخر به, ويقولون: إنه إذا بُخر به المسجون خرج من سجنه, وهو يبرئ من العين والحسد [٢].

ومن الأمور التي قام بها المماليك هو إلغاء عيد الغدير بحيث اعتبروه بدعة من الشيعة في إطار تدعيم مذهبهم الشيعي, وتأكيد أولويتهم وأحقيتهم بالخلافة بانتسابهم لعلي ولآل البيت، وتذكر المصادر التاريخية أن سبب اتخاذهم له مؤاخاة النبي (ص) لعلي كرم الله وجهه يوم غدير خم [٣].

وباعتبار الدولة سنية قائمة باسم الخلافة العباسية ومقراً لإقامة الخليفة العباسي ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م فكان من الطبيعي إلغاء هذا العيد أيام المماليك.

٦- محمل الحج السلطاني:

لقد كان هذا الموسم محط اهتمام الجميع من السلاطين والعامة على حد سواء وفي هذه الفترة تزدهر الأسواق وتزداد فيها الحركة والنشاط لبيع لوازم الحجاج, ويستعد أهل الدولة والمماليك للسفر في رُكب الحج, ويحتفل المماليك بهذا الموسم احتفالاً عرف باسم دوران المحمل، والجدير بالذكر أن المماليك اهتموا اهتماماً بالغاً بهذا الموسم، وخاصة بتجهيز كسوة الكعبة وذلك في إطار حرصهم على الواجهة الدينية لحكمهم, والظهور بمظهر حماة الإسلام والحرمين الشريفين.

آ- استحداث المحمل:

كان الاحتفال بدوران المحمل يحدث مرتين في السنة في منتصف شهر رجب, ويطلق عليه المحمل الرجبي وهو من استحداث الظاهر بيبرس, أما الموعد الثاني فيكون بعد عيد الفطر حوالي منتصف شهر شوال.

---

١ – سعيد عاشور, المجتمع المصري، ص١٧٧.

٢ – ابن الحاج, مصدر السابق, ج١، ص٢٩٠.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤١٧/ المقريزي, الخطط، ج١، ص٣٨٨.

أما بخصوص دوران المحمل الرجبي, فإن المصادر التاريخية تجمع على أن السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أدار المحمل بمصر في شهر رجب والذي يسمى المحمل الرجبي, والمحمل هنا عبارة عن موكب ضخم له تنظيمه ورسومه أعد خصيصاً لحمل كسوة الكعبة كل سنة [١].

وهنا يجب التفريق بين كسوة الكعبة وبين المحمل, فقد كانت الدول السابقة والخلفاء يرسلون كسوة الكعبة كل سنة. أما المحمل فهو من ابتداع السلطان الظاهر بيبرس وبذلك يمكن القول: إن كل ما كان من إرسال الكسوة قبل سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٥م لم يكن في إطار خروج المحمل وإنما يمكن اعتباره تحضيراً أو تهيئة المجال لدوران المحمل السلطاني.

ب- أسباب استحداث المحمل:

كان الهدف الأساسي للظاهر بيبرس من استحداث المحمل هو إظهار رغبته في السيطرة على منطقة الحجاز وهنا يكون المحمل وسيلة لفرض السيطرة على الحجاز بعد تدعيم الحكم [٢] فبعد حجة الظاهر بيبرس إلى الحجاز, وقيامه بكساء الكعبة بيده أمر بضرب النقود باسمه, وذكر اسمه في الخطبة وعيّن نائباً بالحجاز، فقد كان كل من يريد أن يضع يده على الحجاز عليه أن يتميز بشرف توفير كسوة الكعبة وقد كان المحمل السلطاني بكل رسومه وتنظيماته وسيلة لتحقيق ذلك [٣].

ومما يؤكد أن المحمل الذي ابتدعه الظاهر بيبرس كان ذا طابعاً سياسياً أكثر منه دينياً فالمحمل كان مغطى بقماش من حرير أصفر وقد كُتب على إحدى وجوهه اسم السلطان، وباللون الأصفر كان لون دولة المماليك باعتبار على أن الراية المرافقة للمحمل كانت من حرير أصفر مذهب. والمحمل دوره رمزي بما يحمله من هالة ومن إبراز قوة المماليك وهيبتهم, وقد صار المحمل يرسل سنوياً؛ لأنه يرمز لنفوذ الدولة وهو بذلك عنصر من عناصر تدعيم قوتها داخلياً وخارجياً [٤].

ج- دوران المحمل:

---

١ - Jomier. Jacques, le mahmal et la caravane egyptienne, 1975,. P. 44

٢ - J. C. Garcin, le proche orient à l'époque mamluke, 1987, P. 355

٣ - المقريزي, الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك, الهيئة المصرية للكتاب,القاهرة, ١٩٥٦ ، ص ٩٠- ٩٣/ ابن عبد الظاهر, المصدر السابق، ص٢٢٠.

٤ - المقريزي, الذهب المسبوك، ص٩٢.

ذكرنا سابقاً أن دوران المحمل يتم مرتين في السنة في منتصف شهر رجب ويسمى المحمل الرجبي, والثاني في شهر شوال ويسمى خروج المحمل، وكان الغرض من المحمل الرجبي وحسب ما ذكرته المصادر هو إعلام الناس باقتراب موعد الحج، وبث الحماسة الدينية في قلوبهم، فكان ينادى في شهر رجب لمدة ثلاثة أيام بدوران المحمل، ليستعد الناس لتزيين المدينة (فتهيج الغرمات وتنبعث الأشواق) [١]. وعندما يتم استعداد الناس يكون دوران المحمل في اليوم الرابع وغالباً ما يكون في يوم الاثنين أو الخميس [٢].

وفي صباح اليوم المحدد لدوران المحمل تحتشد العامة لمشاهدة موكب المحمل وهو يشق شوارع القاهرة في موكب فخم، وكانت كسوة الكعبة توضع على جمل مزين بالحرير الأصفر [٣].

وينطلق المحمل من أمام باب جامع الحاكم وأمامه الوزير, والقضاة الأربعة, والمحتسب وناظر الكسوة، ومجموعة من فرسان المماليك وهم يرتدون ملابس حربية, ويقومون بعرض مهاراتهم، ويمضي الموكب إلى قلعة السلطان حيث يشرف السلطان على استعراض الموكب، ويبرك الجمل تحية للسلطان، ويستعرض المماليك فنونهم الحربية، فيتجه الموكب الصاخب إلى الفسطاط حيث يخترق الشوارع الرئيسة [٤]. ويلاحظ أن موكب الحج كبقية المواكب والاحتفالات الدينية بالأعياد والمواسم التي اعتاد سلاطين المماليك الخروج فيها، كانت ذات مزيج ديني ودنيوي.

كان يصاحب دوران المحمل جماعة من المماليك السلطانية تحمل الرماح,ويلعب بها أمام السلطان، وكانت هذه الألعاب ذات صبغة عسكرية ومما يؤكد اهتمام سلاطين المماليك بمحمل الحج كونها تشكل رمزاً للقوة التي كانوا يسعون إلى تطويرها، إضافة إلى العناصر التي كانت تبرز قوة وهيبة حكم سلاطين المماليك، التي تظهر من خلال الألعاب العسكرية.

وقد وصف ابن شاهين موكب المحمل وصفاً دقيقاً قائلاً *"أما موكب دوران المحمل فهو يوم مشهود, وتجتمع فيه أهل الديار المصرية والصادر, والوارد وتلعب فيه الرماحة، وكسوة الكعبة الشريفة*

---

١ – ابن بطوطة, المصدر السابق، ص٦٤.

٢ – ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٩٩/ القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٥٧.

٣ – ابن شاهين, المصدر السابق، ص٨٧.

٤ – ابن بطوطة, المصدر السابق، ص٦٤/ القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٥٨/ ابن شداد: الفضائل الباهرة، ص١٩٩.

مشهورة على رؤوس الحمالين, والقضاة, والعلماء, والمشايخ, والصلحاء, وطوائف الفقراء يسيرون أمام المحمل الشريف والأطلاب مزينة، وكل ما بالديار المصرية من التحف والغرائب يُشهر في ذلك اليوم)) [١].

ثم يحمل المحمل من أمام جامع الحاكم ويوضع في مكان بالمدينة إلى حلول شهر شوال. قد يخرج بعض الحجاج للزيارة في شهر رجب ويطلق عليهم الحجاج الرجبية [٢].

د- خروج المحمل:

يعد شهر شوال الموسم الرئيس لخروج الحجاج إلى الحجاز مع موكب المحمل الذي يخرج بعد عيد الفطر بأيام؛ أي منتصف شهر شوال، فيدور باحتفال ضخم يشبه احتفال دوران المحمل الرجبي.

لكن رحلة المحمل مختلفة؛ لأنه يخرج من أمام جامع الحاكم عند نهاية القلعة تحت أنظار السلطان،ولكنه لا يتجه إلى الفسطاط بل يعود من تحت القلعة إلى باب النصر ومنه إلى الريدانية للسفر إلى الحجاز، ويكون على رأس المحمل أمير الحج [٣].

ويكون المحمل منظماً تنظيماً دقيقاً لسلامة موكب الحج والحجاج، فأمير الحج هو قائد المحمل وهو ممثل السلطان ويكون من الجيش المملوكي لحفظ أمن الحجاج؛ ولأن طريق الحج وعرة وغير آمنة، وهو ما يعطي صبغة عسكرية للمحمل.من هنا كان المحمل رمز قوة لسلاطين المماليك.

ويتم اختيار أمير الحج ليلة المولد النبوي، وفي بعض الأحيان كان السلطان بنفسه يتولى قيادة المحمل أو يكلف أحد أبنائه.

وقد قدم السيوطي وصفاً دقيقاً لخروج المحمل (*فيخرج الركب من مصر بالمحمل السلطاني والسبيل المسبل للفقراء, والضعفاء, والمنقطعين بالماء والزاد, والأشربة, والأدوية, والعقاقير, والأطباء, والكحالين, والمجبرين, والأدلاء, والأئمة, والمؤذنين, والأمراء, والجند, والقاضي ,والشهود, والدواوين, والأمناء ومغسل الموتى في أكمل زي وأتم أبهة، وإذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلاً تُدق الكُوسات وينفر النفير ليؤذن للناس بالرحيل...*) [٤].

---

١ – ابن شاهين, المصدر السابق، ص٨٧.

٢ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٥٨/ ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٣٣٦.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٥٨/ Jomier Jacques, le mahmal et la caravane. P. 37, 42.

٤ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٣١٠.

ذكرنا سابقاً أن السلطان قد يكون على رأس محمل الحج, وهنا تزداد رغبة الأمراء ,والأعيان والناس في السفر إلى الحج كما يزداد عدد الأمراء والجنود لضمان سلامة السلطان، وتتخذ إجراءات أمنية كبيرة عند خروج السلطان, أو أحد أبنائه للحج، فالسلطان الملك الأشرف عندما قرر الحج سنة ٧٧٨ هـ/ ١٣٨٦م أرسل جماعة من الأمراء لحفظ البلاد من العرب، وأرسل عدداً من الأمراء إلى سائر الثغور لحفظها أيضاً، كما كان المحمل في غاية الزينة والهيبة [١].

وإذا خرجت زوج السلطان, فإنه يهيئ لها رُكب خاص تسبقه فرقة من كبار الأمراء [٢].

ويعد السلطان الظاهر بيبرس أول من حج من سلاطين المماليك، ثم حج بعده السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي حج ثلاث مرات [٣]. وكان السلاطين يستغلون موسم الحج لتوزيع الصدقات والهبات على الفقراء والحجاج من جهة ومن جهة أخرى على أمراء مكة وأرباب وظائفها لكسب ولائهم [٤].

وهكذا كان الحج عنصراً من عناصر إقامة وتوطيد العلاقات الخارجية، فقد حرص سلاطين المغرب على توطيد علاقاتهم بمصر؛ لأنها كانت طريق حجهم [٥].

هـ- عادات الحج:

من أهم العادات قيام الناس بتزيين الجِمال بالحلي من الذهب والفضة، والأساور والقلائد وإلباسها الحرير، وقد كانوا يقومون بذلك عند خروجهم من القاهرة، وكذلك يفعلون عند الرجوع من الحج.

كانت النساء تخرجن ليلاً في الأيام السابقة عند خروج المحمل لتوديع أقاربهن المتوجهين إلى الحج، إضافة إلى تزيين الدكاكين بالقماش والحرير، وإيقاد القناديل ليلاً ونهاراً.

---

١ – ابن حجرالعسقلاني, الدرر الكامنة, ص١٩٢.

٢ – Abd ARAZIQ Ahmed, la femme au temps des mamluks, Paris, 1995,P. 206- 207

٣ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٤٨٣. كانت حجته الأولى سنة ٧١٢ هـ ثم حج سنة ٧١٩ هـ أما حجته الثالثة سنة ٧٣٢ هـ. للمزيد ابن إياس، المصدر السابق, ص٤٨٣.

٤ – ابن عبد الظاهر, تشريف الأيام والصورفي سيرة الملك المنصور, تح مراد كامل, القاهرة, ١٩٦١، ص١٤٥.

٥ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٤٤٧.

هذا إلى جانب عادات الرجال من لبس الحرير والاختلاط مع النساء، وكان يصحب هذه الأجواء ضرب الطبول, والأبواق عند عودة الحجاج وذلك لتهنئتهم. وقد اعتبر ابن الحاج هذه الأعمال جميعها إضافة للمال, والمباهاة والتفاخر, تشجع على المفاسد وارتكاب المحرمات [١].

ويمكن القول: إن هذا المحمل له بعدين أساسين هما:

أ . البعد السياسي باعتبار أن المحمل رمز لسيطرة المماليك على الحجاز والأماكن المقدسة.

ب . البعد الديني, وهو حرص المماليك على الظهور بمظهر المحافظين على أركان الدين الإسلامي.

و- عودة الحجاج:

كانت عودة الحجاج مناسبة احتفالية وهي ثالث الاحتفالات المرتبطة بالحج بعد احتفال دوران المحمل الرجبي, والاحتفالات المصاحبة لخروج المحمل, ويكون استقبال عودة الحجاج في أواخر شهر محرم, وكانت العادة أن يسبق الحجاج مبشر الحاج ينبئ بسلامة الركب والحجاج، وكان هذا المبشر يسبق قدوم المحمل بثلاثة أيام [٢].

وتكون المحطة الأولى للمحمل عند بركة الحاج [٣]، وفي اليوم التالي يشق الركب مدينة القاهرة وسط احتفالات كبيرة. وعند دخول الركب إلى القاهرة يصعد أمير الحج إلى السلطان المتواجد في القلعة ليفيض عليه بالخلع، وهي من العادات المتبعة.

وتكون الاحتفالات أكثر فخامة إذا كان السلطان على رأس الركب. وقد يخرج السلطان بنفسه إلى بركة الحاج لاستقبال زوجه عند عودتها من الحج في موكب عظيم يخلع فيه السلطان الخلع على الأمراء وزوجاتهم، والناس يستقبلون الحجاج بمد موائد الطعام والحلويات [٤].

يلاحظ أن سلاطين المماليك كانوا يستغلون أية مناسبة لتوزيع الصدقات ومنح الخلع والعطايا لكسب الولاء.

---

١ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٤، ص٢١٦.

٢ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٤٩٤.

٣ – تقع بركة الحاج في الجهة البحرية من القاهرة وعرفت بهذا الاسم من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرتهم من القاهرة وعند عودتهم.

٤ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٤٦٦.

كذلك انعكست مظاهر التدهور العام في أواخر عصر سلاطين المماليك على احتفال دوران المحمل، فقد قلّ الاهتمام بأمر المحمل، ولم يعد الحكام يلتزمون بمواعيده التقليدية، كما كانت الأوبئة والمجاعات التي تحصد أعداداً كبيرة من السكان تؤثر على الاحتفال، وتسبب قلة في الناس المشاركين في الاحتفال [١].

ومن ناحية أخرى انعكست حالة التدهور الأمني على احتفال دوران المحمل، فقد ابتكر المماليك بدعة جديدة هي (عفاريت المحمل) وهم مجموعة من المماليك يركبون خيولهم وقد غيروا من هيئتهم بشكل مزعج، فيطرقون أبواب الأعيان والأمراء، ويأخذون منهم المال قسراً، ويعترضون الناس في الشوارع، وكانوا يخطفون النساء والصبيان ويفسقون بهم جهراً، وينهبون الأمتعة... الخ. فطالب الناس بإلغاء بدعة ما سموه عفاريت المحمل [٢].

ثالثاً- احتفالات طوائف المجتمع

تتمثل بطائفتين أساسيتين هما: النصارى واليهود وكل منهم يُقسم إلى طوائف فطوائف النصارى تتمثل بطائفتين أساسيتين، الطائفة الملكية، واليعاقبة وترجع الاختلافات بين الطائفتين إلى نزاعات مذهبية حول طبيعة المسيح هل هو إله أم بشر [٣].

أما اليهود فينقسمون زمن الدولة المملوكية إلى ثلاثة فرق دينية, وهم الربانيون، والقراؤون، والسامرة، وانقساماتهم أيضاً ذات طبيعة دينية مرتبطة بمدى الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود، والاقتراب من أصول الديانة اليهودية.

وقد تمتعت طوائف المجتمع في الدولة المملوكية بحرية العقيدة حيث كانوا يمارسون طقوسهم الدينية بحرية، ومن مظاهر ذلك عدد أعيادهم الدينية. وهو ما يدل من ناحية أخرى على أهمية أهل الذمة العددية ومكانتهم الاجتماعية.

---

١ – المقريزي, السلوك، ج٤، ص١٠٠٦./ ابن تغري بردي, النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٧.

٢ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص١٠٢٦/ ويذكر ابن الصيرفي(علي بن داوود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان, تح حسن حبشي, القاهرة ١٩٧٠– ١٩٧٣ ,ج٣، ص١٥٥ أنه حدث في سنة ٨٣٢ هـ أنه تصدى الناس لعبث المماليك الأجلاب وقتلوا اثنين منهم.

٣ – قاسم عبده قاسم, أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة , دار المعارف, ١٩٧٩ ص١٠٣.

١- أعياد النصارى:

تجمع المصادر التاريخية أن أعياد النصارى في عصر سلاطين المماليك كانت عديدة أو كثيرة، وتنقسم إلى نوعين: كبار وصغار؛ وهي سبعة أعياد كبرى وسبعة صغرى [١].

آ- الأعياد الكبار:

- **عيد البشارة:** في التاسع والعشرين من شهر مارس (برمهات) وهو بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بمولد المسيح عليه السلام.
- **عيد الزيتونة:** أو عيد الشعانين ومعناها التسبيح في ذكرى دخول المسيح إلى القدس، ثم دخوله الهيكل، ويحتفل به في الأحد السابع من صومهم الذي يوافق اليوم الثاني والأربعين من بداية الصوم. وفي عيد الشعانين تزين الكنائس, ويخرج الناس حاملين معهم سعف النخيل، كما يخرجون إلى الأماكن الخلوية والمنتزهات لا سيما في ضاحية المطرية، حيث كان يوجد بئر يسمى البلسم ويعتقد المسيحيون أن مريم العذراء غسلت فيه ثياب المسيح [٢].
- **عيد الفصح:** وهو عيد الفطر من صومهم الأكبر، ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره واجتماعه مع تلامذته, وتناولهم الطعام معه، ويكون ذلك في ليلة الحادي والعشرين من مارس (برمهات).
- **عيد خميس الأربعين:** ويتصل هذا العيد بالتراث الديني المسيحي الذي يقول: إنه السيد المسيح صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه، وذلك بعد أن أكمل ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر [٣]. ويُعرف هذا العيد عند أهل الشام بالمسلاق، ويقال له أيضاً عيد الصعود.
- **عيد الخميس:** أو عيد العنصرة في السادس والعشرين من شهر مايو (بشنش)، ويعتقد المسيحيون أنه بعد عشرة أيام من الصعود، وخمسين يوماً من قيامة المسيح اجتمع التلاميذ (حواري المسيح) في صهيون, فتجلى لهم روح القدس في شكل ألسنة من نار، وتفرقت عليهم

---

١ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٥/ المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٤/ ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٥٩.

٢ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٣/ رمضان (هويدا عبد العظيم): المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب, مصر, ج٢, ص ٦٢.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٦.

ألسنة الناس، فتكلموا بجميع اللغات، وذهب كل منهم إلى البلد الذي يعرف لغته للدعوة إلى دين المسيح [١].

- **عيد الميلاد:** ذكرى ميلاد السيد المسيح الذي يحتفل به الناس في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر (كيهك) وهي ذكرى مولد المسيح عشية الأحد؛لأنهم يعتقدون أن السيد المسيح ولد يوم الإسفين. كان النصارى يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينونها، ويلعبون بالمشاعل ويقول المقريزي: إنه شاهد احتفالات الميلاد التي كانت (موسماً جليلاً) تباع فيه الشموع المصبوغة بالألوان الرائعة ويشتريها الناس جميعاً، ويزدهر سوق الشمَّاعين لهذا السبب.
وقد بالغ الناس في الإنفاق على تزيينها [٢].
- **عيد الغطاس:** وهو العيد السابع من الأعياد الكبرى، كان النصارى يحتفلون فيه في الحادي عشر من شهر يناير (طوبة) في ذكرى تعميد السيد المسيح على يدي يوحنا المعمدان (النبي يحيى بن زكريا) عليهما السلام في مياه الأردن. وفي هذا العيد كان النصارى يغمسون أولادهم في المياه على الرغم من شدة البرد،اعتقاداً منهم أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم [٣].

ب- الأعياد الصغار:

- **عيد الختان:** يحتفلون به في اليوم السادس من شهر يونيو (بؤونه) وهو اليوم الثامن من الميلاد هو ذكرى ختان المسيح.
- **عيد الأربعين:** يحتفل به النصارى في الثامن من شهر فبراير (أمشير) في ذكرى مباركة الكاهن سمعان للسيد المسيح بعد دخوله الهيكل بعد أربعين يوماً من مولده.
- **عيد خمسين العهد:** يأتي قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وكانوا يملؤون إناءً من الماء، ثم يغسل البطريرك رجل أحد النصارى المتواجدين في ذكرى غسل المسيح لأرجل تلامذته ليعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد ألا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض، وعامة الناس كانوا

---

١ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٦./ المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٣.

٢ – المصدر السابق، ج١، ص٢٦٣.

٣ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٥٦. /المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٦./ المقدسي, أحسن التقاسيم, دار الرشيد, بغداد, ١٩٧٠, ص ٢٣١./ المسعودي, مروج الذهب ومعادن الجوهر, دار الفكر, بيروت, ج٢, ١٩٨٠, ص ١٩٥٥.

يسمونه خميس العدس، ويقول أهل الشام: خميس الأرز، ويبدو أن هذه التسميات تعود إلى نوع الطعام الذي اشتهر كل إقليم بتناوله في هذه المناسبة. وكان من عادات أهل مصر من المسلمين والنصارى، تبادل الهدايا والأطعمة في هذا العيد [١].

- **عيد سبت النور**: وهو قبل عيد الفصح بيوم ويزعمون أن النور يظهر على قبر المسيح في هذا اليوم، فتوقد منه مصابيح كنيسة القيامة بالقدس، وكان من عادات النصارى في هذا اليوم أن يقوموا بجمع أنواع مختلفة من ورق الشجر، ويضعونه في إناء مملوء بالماء ويغتسلون به ثم يقومون بإلقاء ذلك الماء المستعمل في طريق الناس، زعماً منهم أن ذلك يذهب عنهم المرض والحسد [٢].
- **عيد حد الحدود**: وهو بعد عيد الفصح بثمانية أيام ويكون أول أحد بعد الفطر؛ لأن الأعياد قبله مشغولة بالصوم، وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس.
- **عيد التجلي**: يزعمون أن المسيح تجلى لتلامذته بعدما رُفع وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا وموسى عليهما السلام، فأحضرهما بمصلى بيت القدس ثم صعد إلى السماء وتركهم. ويحتفل به في الثالث عشر من شهر أغسطس (مسرى).
- **عيد الصليب**: احتفلوا به في اليوم السابع من شهر ديسمبر (توت) وهو من الأعياد المحدثة، وسببه ظهور الصليب على يدي هيلانة أم قسطنطين. ويذكر المقريزي: أنها سافرت إلى بيت المقدس في طلب آثار المسيح عليه السلام, وبناء الكنائس, وإقامة الشعائر النصرانية. ويقال: إن الأسقف مغاريوس دلها على الخشبة التي زعموا أن المسيح صلب عليها. وقد قضى ما عمل به اليهود، فحفرت فوجدت قبراً وثلاث خشبات على شكل صليب فاتخذوا ذلك اليوم عيداً وسموه عيد الصليب، وبنيت في المكان نفسه كنيسة القيامة [٣].

٢- أعياد اليهود:

---

١ - المقريزي, الخطط، ج١، ص٧٣٧. هويدا, المرجع السابق, ص٦٥.

٢ - ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٥٦.

٣ - المقريزي, الخطط، ج١، ص٧٣٨.

هناك نوعان من الأعياد لليهود في عصر المماليك؛ أعياد مرتبطة بشريعتهم،وتسمى الأعياد الشرعية وعددها خمسة، وأعياد أخرى تسمى بالأعياد المحدثة وهي الأعياد غير الشرعية.

آ- الأعياد الشرعية:

- **عيد رأس السنة:** واسمه العبري القديم (رأش هيشا) وبالعبرية الحديثة (روش هشاناه) يقدمون فيه الأضاحي في ذكرى افتداء إسماعيل، ويحل أول شهر تشري اليهودي [١] ويعد هذا العيد عيد عتق وحرية عند اليهود؛ لأنه يرتبط بخلاصهم من فرعون، وقد سماه المقريزي ((عيد البشارة)) [٢]. وثمة اختلاف بين طريقة كل من الربانيين والقرائين في الاحتفال بهذا العيد، رصدتها المصادر في تلك الفترة. إذ كان الربانيون ينفخون الأبواق في معابدهم أثناء الصلاة, في حين اكتفى القراؤون بالصلاة والتهليل حمداً وشكراً؛ لأنه يعد يوم عتق رقاب بالنسبة لهم [٣].
- **عيد صوماريا:** ويسمى عندهم أيضاً الكبور، وهو يوم الغفران عندهم وعقوبة من لا يصوم هذا اليوم أن يقتل. ويرى بعض الباحثين أن هذا العيد الذي يرجع إلى عصور العبرانيين الأولى مرتبط بأصول الشريعة اليهودية التي قررت يوماً في العام لحساب الذات، وأن اليهود من شدة ما عانوه من اضطهادات على طول تاريخهم جعلوا هذا اليوم لنقض مواثيقهم، وأكل الديون التي يدينون بها لغير اليهود [٤]. ومدة الصوم أربع وعشرين ساعة، تبدأ فيها من غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشري، وتنتهي بغروبها في اليوم العاشر. وربما سموه العاشور.

---

١ – شهورهم اثنا عشر شهراً. وأيام السنة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً، وشهورهم هي: تشري، مرحشوان، كسليو، طبيث، شفط، آذار، نيسن، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول. للمزيد المقريزي, الخطط، ج٣، ص٧١٨.

٢ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٧١.

٣ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٧١/ القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٦/ النويري, المصدر السابق، ج١، ص١٨٧/ مراد فرح, القراؤون والربانيون، القاهرة, ١٩٧٨ ص١٢٤.

٤ – ظاظا (حسن): الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة, ١٩٧١ ص١٩٤.

ويشترط فيه لجواز الإفطار رؤية كواكب عند الإفطار ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم يوم الأحد ولا يوم الثلاثاء ولا يوم الجمعة، ويعتقدون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم[١].

- ❖ **عيد الظلمة:** أو عيد الظل. يبدأ الاحتفال به في الخامس عشر من شهر تشري ويستمر سبعة أيام، واليوم الثامن يسمى عيد الاعتكاف عند الربانيين وفي هذا العيد يحتفل اليهود بذكرى الغمام الذي أظلهم الله به في التيه، فيجلسون تحت سعف النخيل الأخضر وأغصان الزيتون وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة [٢].
- ❖ **عيد الفطير:** ويعرف أيضاً بعيد الفصح، موعده في الخامس عشر من شهر نيسان اليهودي وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به، فهي سبعة أيام عند القرائين، وثمانية أيام عند الربانيين، وستة فقط عند السامرة. ويعد هذا العيد من أعياد التضحية ومواسم الحج لدى اليهود، بينما يحج الربانيون والقراؤون في هذا العيد إلى بيت المقدس، ويضحون على الصخرة المقدسة، وتحج السامرة على جبل حزريم القريب من نابلس في فلسطين ويضحون هناك. وفي هذا العيد يأكلون الفطير، وهو ذكرى لإحياء الأيام التي خلص فيها بنو إسرائيل من يد فرعون وإغراقه، فخرجوا إلى التيه، فأخذوا يأكلون اللحم والخبز والفطير [٣].
- ❖ **عيد الأسابيع:** ويسمى بعيد العنصرة والخطاب الذي يحتفلون فيه بذكرى الوصايا العشر التي أنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام، وهذا العيد يحل في السادس من شهر سيوان اليهودي، واحتفالاً في هذه المناسبة يأكل اليهود القطايف [٤].

ب- الأعياد المحدثة:

- ❖ **عيد الفوز:** ويسميه اليهود أيضاً عيد (البوريم) وهو ذكرى انتصار اليهود على الوزير الفارسي هامان الذي أخذته الغيرة من اليهود وأراد القضاء عليهم، لكن نفوذ أستير الجميلة لدى الامبراطور الفارسي جعله يقتل هامان ورجاله. يبدأ هذا العيد بالصوم ويستمر من الثالث

---

١ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٧٣/ هويدا, المرجع السابق, ص٦٩.

٢ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٧٢/ القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٣٧.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٨، ص٢٦٩./ التطيلي(بنيامين): رحلة بنيامين البطيلي، بغداد, ١٣٤٨هـ, ص١٨٥، ص١٩٠.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٦/ المقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٧٢.

عشر من آذار حتى الخامس عشر منه، ثم يقيم اليهود مهرجاناً صاخباً يحرقون فيه تمثالاً من الورق المملوء بالنخالة رمزاً لهامان. ويبدو أن هذا العيد كان يرتبط بمظاهر اللهو والخلاعة في عصر المماليك لدرجة جعلت المؤرخين المسلمين يطلقون عليه عيد المسخرة. وفي هذا العيد كان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات [١].

- **عيد الحنكة:** ويسمى أيضاً الحانوكة. كان الاحتفال به يستمر على مدى ثمانية أيام تبدأ من ليلة الخامس والعشرين من شهر (كسليو) في ذكرى انتصار اليهود على أنطوخيوس أبيغانس الذي حاول إرغام اليهود على عبادة الأصنام،ولكنهم استعادوا هيكلهم وطهروه من الأصنام، والكلمة العبرية الحانوكة تعني التنظيف؛أي أن اليهود نظفوا الهيكل من تماثيل آلهة اليونانيين.

وفي عصر المماليك كان اليهود يوقدون المصابيح على أبواب دورهم وفقاً للعد التصاعدي، ففي الليلة الأولى يوقدون قنديلاً واحداً، وفي الليلة الثانية قنديلين حتى تتم ثمانية قناديل في اليوم الثامن. وقد كان الربانيون الأكثر اهتماماً بهذا العيد مقارنة بالقرائيين. والسامرة الذين لم يهتموا به [٢].

---

١ – ابن الوردي, تاريخ ابن الوردي، القاهرة, ١٢٥٨هـ, ج١، ص٧٨./ النويري, المصدر السابق، ج١، ص١٨٩./ قاسم عبده قاسم, أهل الذمة، ص١٢٦.

٢ – النويري, المصدر السابق، ج١، ص١٧٨. القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٧. المقريزي, الخطط، ج٢، ص٤٧٢.

الفصل الثاني

الاحتفالات المملوكية والسلطانية

أولاً- الاحتفالات المملوكية:

١- إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة والاحتفال بتولية الخليفة:

تعرضت دولة المماليك إلى أخطار داخلية وخارجية هددت وجودها، لذلك سعى سلاطين المماليك منذ البداية إلى البحث عن هذه الشرعية التي افتقدوا إليها للحفاظ على استقرار سلطتهم واستمرار حكمهم [١]. فحاولوا إحاطة دولتهم بإظهار الولاء للخلافة العباسية، ورغم تركيز المصادر على الدور الذي شغله الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية والحصول على الشرعية [٢]، فإن

١ - J. C. Gracain, Le système mamluk et le Blocage de la société mamluk,1990, P. 98

٢ - زيادة(محمد مصطفى): بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر, مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة, م٤, ج١, ١٩٣٦، ص٧٥.

الظاهر بيبرس لم يكن أول من قام بهذا المشروع, فقد ظهرت هذه المحاولات مع أحمد بن طولون سنة ٢٦٩ هـ/٨٨٢ م ثم مع محمد الأخشيد سنة ٣٣٣ هـ/ ٩٤٤ م [١].

وقبيل قيام دولة المماليك البحرية وتحديداً في تاريخ حكم شجرة الدر أرسل أمراء المماليك إلى بغداد يطلبون اعترافاً بشجرة الدر. من هنا نلاحظ أن جل ملوك مصر سعوا للحصول على التفويض أو التقليد من الخليفة العباسي؛ لأنه كان من المصطلح أن لا شرعية للحكم عند المسلمين إلا بتفويض من خليفة المسلمين ببغداد، وخاصة منهم المماليك الذين كانوا من الرقيق وليس لهم أصل، فكانوا بحاجة أكثر من غيرهم للحصول على الشرعية التي كانوا يفتقدون إليها. وقد كان للسلطان الظاهر بيبرس الفضل في إحياء الخلافة العباسية وإقامتها بالقاهرة ليدعم بذلك حكمه ضد أطماع منافسيه، وليحصل على شرعية حكمه من خلال تفويض الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة. ولكن نجاح السلطان الظاهر بيبرس بتحقيق هذا المشروع لا يرجع إلى حكمته السياسية فحسب وإنما أيضاً للظروف التي ساهمت في تحقيق ذلك.

وأهم هذه الظروف التي ساهمت في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، سقوط الخلافة العباسية ببغداد على أثر الهجوم المغولي على العراق سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م والتي قتل أثناءها الخليفة العباسي المستعصم بالله وأولاده، ثم ظهور المماليك كقوة وحيدة قادرة على الدفاع عن المسلمين [٢]. وبسقوط الخلافة العباسية أصبح العالم الإسلامي بدون خليفة، وأصبح من المستحيل أن تقام خلافة من جديد ببغداد والعراق التي أصبحت قاعدة للمغول، وظل العالم الإسلامي بدون خليفة مدة ثلاث سنوات [٣].

وهنا ظهر الظاهر بيبرس كمنقذ للوضع بعد أن اجتمعت الظروف لصالحه، وبعد أن كان منقاداً بقوة لاستكمال هذا المشروع ليكتسب به شرعية الحكم خاصة وأنه استلم الحكم بعد أن قتل السلطان المظفر قطز عند عودته من معركة عين جالوت التي ساندت موقع المماليك كقوة وحيدة قادرة على حماية المسلمين ضد خطر المغول والصليبيين، مما دفع بيبرس لإحياء الخلافة لتدعيم حكمه واكتساب الشرعية. وأيضاً مد نفوذه وسلطانه باسم الخليفة على الحجاز من خلال محمل الحج السلطاني.أمام هذه الظروف كان اعتراف الخلافة الإسلامية به هو السند الوحيد له وكان إحياء

---

١ – عبد المنعم ماجد, المرجع السابق، ص٣٢.

٢ - قاسم عبده قاسم, عصر سلاطين المماليك، دار الشروق, القاهرة, ١٩٩٤ص٦.

٣ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١٠٩.

الخلافة العباسية خروجاً من أزمة كبيرة، تحققت على يد الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م حيث تذكر المصادر أن أحد أفراد العائلة العباسية وهو أول الأمراء الناجين من الإبادة قدم من بغداد إلى القاهرة ويدعى أبو القاسم أحمد وهو عم المستعصم وأخ المستنصر [١].

وتذكر الروايات أن الأمير العباسي هو من اتصل بالظاهر بيبرس في حين تورد بعض الروايات أن الظاهر بيبرس هو من سعى للبحث عن هذا الأمير واستقدمه إلى مصر. وعندما خرج الأمير العباسي الإمام أحمد إلى القاهرة ركب السلطان الظاهر للقائه في موكب مشهود [٢].

ويستدل من خروج السلطان بنفسه للقاء الأمير العباسي على تلهف السلطان بيبرس لاستقباله ومبايعته؛ لأنه الضامن لشرعيته، ولم يخرج السلطان لوحده وإنما كان في صحبته (الوزير بهاء الدين بن حنا, وقاضي القضاة ,وتاج الدين بن بنت الأعز, والشهود، والرؤساء، والقراء والمؤذنون، واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل... وكان لدخوله يوم مشهود). كما يذكر السيوطي أنه دخل من باب النصر (بأبهة عظيمة) [٣].

وقد بالغ بيبرس في احترامه وإكرامه. بدأ دخول موكب الأمير العباسي بالطواف بالمدينة وهو يرتدي الشعار العباسي المتمثل بالسواد وبصحبته أعيان الدولة وقد خرج الناس لرؤيته والاحتفال بقدومه، ثم صعد إلى قلعة الجبل. ومن مظاهر مبالغة السلطان الظاهر بيبرس باستقباله أنه جعل الإمام يتقدم عليه في الدخول [٤].

وكل ذلك قبل التأكد من نسبه، وبعد خمسة أيام من قدوم الأمير عقد السلطان مجلساً عاماً بالإيوان الكبير وقد أقيم هذا المجلس العام بهدف التثبت من صحة نسب الأمير أحمد وتوليته الخلافة والأهم من ذلك حصول السلطان على تقليد من الخليفة الجديد. ويبدو أن السلطان أظهر في هذا الموكب من التواضع والإجلال للأمير العباسي, وفيه وقع التثبيت من نسب الأمير العباسي، وأقروا جميعاً صحة نسب الأمير إلى العباس بن عبد المطلب، وأنه الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الناصر لدين الله العباسي.

---

١ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٢٢. / ابن العماد الحنبلي, شذرات الذهب، ج٥، ص٢٩٧.

٢ – العيني, المصدر السابق،ج١, ص٢٩٤.

٣ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٣. / ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١٠٩.

٤ – حطيط (أحمد): الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية، دار المعارف, القاهرة, ١٩٨٦, ص٣١.

وهنا يتضح رغبة الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية بسرعة لتشريع سلطته؛لأن هذا المجلس كان أمراً شكلياً [١].

وبتثبيت نسب الأمير العباسي تمت مبايعته بالخلافة من قبل السلطان والقضاة، ثم بايعه الأمراء، ثم سائر الناس على اختلاف طبقاتهم وكتبت الرسائل إلى سائر الولايات لأخذ البيعة من أهلها [٢]. ولقب الخليفة الجديد بالمستنصر بالله لقب أخيه الذي قتل على أيدي التتار [٣].

وبعد البيعة تمت الخلافة للمستنصر بالله, وصحت له الإمامة, وكتب السلطان أن ((يخطب له على المنابر وتنقش السكة باسمه واسم الملك الظاهر)). وأنزل الخليفة الجديد بقلعة الجبل في مكان خاص من البرج له ولحاشيته, وخدمه.

وفي يوم الجمعة الموافق للسابع عشر من شهر رجب ((*ركب الخليفة بأبهة السواد باجتماع القضاة والعلماء*)) [٤].وخطب بالناس وصلى بهم في جامع القلعة، وألقى في الناس خطبة بليغة أظهر فيها من الثناء على السلطان الظاهر بيبرس البندقداري, وفضله في إحياء الخلافة العباسية [٥].

لم يكد الظاهر بيبرس ينتهي من مبايعة الخليفة الجديد حتى طلب منه التفويض بالسلطنة، فقد كان من الضروري أن يبايعه الخليفة ويقلده السلطنة حتى تصبح ولايته شرعية وهو ما كان يسعى السلطان الظاهر بيبرس إليه [٦]. فكان من الخليفة الجديد أن بايع بدوره السلطان الظاهر بيبرس بحضور أعيان الدولة, وكبار رجال الدين [٧].

وقد كان السلطان بحاجة إلى تدعيم سلطانه بهذه المظاهر الاحتفالية, ثم أقيم احتفال تولية السلطان الظاهر بيبرس ونصبت الخيمة بقبة باب النصر بحضور الخليفة, والسلطان, والوزراء والأمراء ((*ركب السلطان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير بظاهر القاهرة, وألبسه الخليفة الأبهة*

---

١ – العيني, المصدر السابق، ص٢٩٥.

٢ – ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٩٥.

٣ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٣./ ابن إياس,: بدائع الزهور، ج١، ص٣١٤.

٤ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٣١٥.

٥ – ابن عبد الظاهر, المصدر السابق، ص١٠٣.

٦ – ابن إياس,: بدائع الزهور، ج١، ص٣١٦.

٧ – العيني, المصدر السابق، ص٢٩٦.

العباسية وهي الجبة السوداء, والعمامة البنفسجية, والطوق, وتقلد سيفاً وجلس مجلساً عاماً))[١].وبايعه الخليفة والأمراء ولقب السلطان الظاهر بيبرس بقسيم أمير المؤمنين، وقد أثنى الخليفة بخطابه على السلطان ودوره في إحياء الخلافة العباسية. وطلب منه أن يعيد الخلافة إلى بغداد وهو ما يفهم من خلال الخطاب: ((*لوبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة المعظمة إلى ما كان عليه من الأيام الأولى*)) [٢].

وبعد الانتهاء من قراءة التقليد ركب السلطان الظاهر بيبرس بشعار السلطنة ((والقيد في رجليه والطوق في عنقه والوزير بين يديه على رأسه التقليد والأمراء والدولة في خدمته)) [٣].

ثم انطلق بعد ذلك ليشق القاهرة احتفالاً بهذه المناسبة، وقد بُسطت الطريق للسلطان بالثياب الفاخرة ومشى عليها حتى وصل إلى القلعة [٤].

وبذلك حصل على الشرعية التي كان يفتقدها بعد أن اعتلى الحكم بالقوة بدون سند شرعي.

لكن إحياء الخلافة العباسية بمبايعة المستنصر كانت تمثل مجرد مرحلة أولى بسبب مقتل الخليفة عندما قرر استرجاع مقر خلافته ببغداد، وقد شغل الظاهر بيبرس دوراً في ذلك عندما جهز له جيشاً قوامه ثلاثمئة فارس للوقوف بوجه الجيش المغولي الضخم وهو ما يرجح تخطيط الظاهر بيبرس التخلص من الخليفة المستنصر, بعد أن حصل منه على تفويض بالسلطنة، وظلّ العالم الإسلامي من جديد بدون خلافة. فاستقر رأي بيبرس على استقدام خليفة آخر تكون له هذه الزعامة الدينية ويضمن له شرعية الحكم على أن يكون هذه المرة تحت سيطرته [٥].

ثم استقدم السلطان سنة ٦٦١ هـ- ١٢٦٢ م أميراً عباسياً يدعى أبو العباس أحمد، لما قَدم إلى مصر استقبله السلطان بنفس الحفاوة التي استقبل بها المستنصر بالله [٦] وأقام له احتفالاً لمبايعته بعد إثبات صحة نسبه، ثم بايع السلطان وتلقب بالحاكم بأمر الله.

---

١ – العيني, المصدر السابق، ص٢٩٦./ ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٩٥.

٢ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٤./ النويري, المصدر السابق، ج٣٠، ص٣٤.

٣ – العيني, المصدر السابق، ص٢٩٨. / السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٨.

٤ – العيني, المصدر السابق، ص٢٩٨./ النويري, المصدر السابق، ج٣٠، ص٣٥.

٥ – النويري, المصدر السابق، ج٣٠، ص٣٤./ ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٩٥.

٦ – ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٩٥.

لكن هذه المرة لم يقم السلطان بمبايعة الأمير إلا بعد مضي ستة أشهر، فالأمير وصل القاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١م ولم يبايع سوى في الثامن من محرم سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢م ، وظل الأمير مقيماً طيلة هذه الفترة دون مبايعة [١].

وفي سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢م احتفل السلطان بتولية الخليفة الجديد بالإيوان الكبير بقلعة الجبل في موكب عظيم اجتمع فيه الأمراء والجنود ((*جلس السلطان بالإيوان لبيعته وحضر القضاة, والأعيان, وأرباب الدولة, وقرأ نسبه على قاضي القضاة، وشهد عنده جماعة بذلك فأثبته*)) [٢].

يلاحظ أن السلطان في كل بيعة يقوم بإثبات صحة نسب الخليفة أولاً وعلى إثر مبايعة الخليفة على كتاب الله وسنة رسوله, والأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر أعيد إحياء الخلافة العباسية من جديد، وبالمقابل بادر الخليفة بتقليد الظاهر بيبرس أمور البلاد [٣].

لكن هذه المرة قرر السلطان أن تكون القاهرة مقر الخليفة العباسي ,وقد أنزل الحاكم بأمر الله بقلعة الكبش ((*فسكن بها إلى أن مات*)) [٤].

ورغم دور المماليك في الجهاد ضد الغزو الصليبي والمغولي لحماية الإسلام, فإن ذلك لم يضمن لهم شرعية الحكم باعتبارهم من الرقيق إلا بعد الحصول على تفويض من الخليفة العباسي وذلك بعد إحياء الخلافة وإن كانت مؤسسة الخلافة شكلية [٥].

حصل المماليك بإنجازهم هذا على امتياز كبير, وظهروا أمام العالم الإسلامي كحماة للخلافة العباسية, وبذلك استطاع الظاهر بيبرس أن يضمن لدولة سلاطين المماليك حماية روحية كفيلة بأن تحصِّنهم ضد أي معارضة داخلية أو خارجية, وأن تحقق لهم استقرار دواتهم واستمرارها.

وتأكيداً على الامتياز سارع الظاهر بيبرس إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفين [٦].

---

١ – ابن تغري , المصدر السابق، ج٧، ص١١٨. / السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٢٩.

٢ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١١٨.

٣ – العيني, المصدر السابق، ص٥١./ بيبرس المنصوري, المصدر السابق، ص٥١.

٤ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١١٩.

٤ – العيني, المصدر السابق، ص٥١./ ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٩٥.

٥ – محمود سليم رزق, المرجع السابق، ص١٤– ١٨./ العبادي(أحمد): في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٥٣.

٦ – J. C. Garcin, Le proche oriente à L'épouque mamluke. P 444

وقد اقتصر دور الخليفة على الظهور إلى جانب السلطان في المناسبات الدينية كالأعياد والمواسم، فقد رسم له السلطان (أن يطلع إلى القلعة عند مستهل كل شهر ويهنئ السلطان بالشهر))[1]. وكان أهم عمل يقوم به الخليفة العباسي في القاهرة هو مبايعة السلطان الجديد بالسلطنة وتفويض أمور المسلمين إليه والركوب مع السلطان في الأعياد والمناسبات.

ويشير البحث في هذه الحقبة إلى أنه كان يصحب تولية الخليفة الجديد في كل مرة حفل تظهر فيه مظاهر العظمة والأبهة، ويبدأ هذا الاحتفال بتقليد الخليفة أمور الخلافة من طرف السلطان, والقضاة, ويحضر الاحتفال القضاة وأعيان الدولة، وكان الخليفة يلبس السواد شعار الدولة العباسية [2].

٢- الاحتفال بتولية السلطان المملوكي:

كان السلطان في عصر المماليك أعلى سلطة، حيث يصل إلى عرش السلطنة في الغالب نتيجة اختيار كبار الأمراء له، وليس نتيجة الوراثة.

وكان يحدد وصوله إلى منصب السلطان عدة ظروف أهمها: ضمان الأمير الطامح إلى السلطنة الولاء من عدد كبير من المماليك, كما كان على السلطان أن يتقرب من كبار الأمراء, وضمان ولائهم عن طريق توزيع الإقطاعات والوظائف.

وقد كان وصول الأمراء إلى عرش السلطنة عن طريق قتل السلطان السابق, أو نفيه خارج القاهرة، ومن أجل استمرار السلطان في منصبه كان عليه أن يكون قوياً. وإلى جانب دور الأمراء في استمرار حكم السلطان، فقد كان هذا الأخير بحاجة إلى تشريع أو ضمان شرعية حكمه, فكان يحصل تبعاً لذلك على تفويض من الخليفة العباسي بعد إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة؛ لأن السلطان نفسه كان من المماليك وكان بحاجة لضمان شرعية حكمه.

كانت العادة في مصر المملوكية أنه إذا خلا العرش من السلطان يتشاور كبار الأمراء فيما بينهم لتولية واحد منهم، وقد كان يقع الاحتفال بالسلطان الجديد قبل الشروع في دفن السلطان الراحل

---

١ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٣٢٠.

٢ – ابن إياس, بائع الزهور، ج١، ص٣٢١. ابن كثير, المصدر السابق، ج١٤، ص١٩./ السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٦٦.

[1]. كما كانت العادة في مصر المملوكية أن يصاحب تولية السلطان الجديد وتفويضه للحكم من قبل الخليفة، احتفال ضخم ومهيب له تنظيمه وتراتيبه كما تبرز من خلال شعائر السلطنة وهيبة السلاطين ودولتهم.

أما بالنسبة إلى طريقة الاحتفال في الدولة المملوكية،فقد كان لها خصوصيتها وتراتيبها الخاصة، كما أنها تطورت كثيراً عما كانت في بداية الحكم. ففي بداية حكم المماليك وتحديداً منذ نشأة دولة سلاطين المماليك البحرية ومع أول سلاطينها السلطان الملك المعز أيبك التركماني (٦٤٨-٦٥٥ هـ= ١٢٥٠/١٢٥٧م)، تميزت هذه المرحلة ببدايات الدولة الجديدة وخاصة وقوعها تحت تهديدات الأخطار الداخلية المتمثلة في المعارضة الأيوبية والأخطار الخارجية المتمثلة في الخطرين الصليبي والمغولي.

ويشار هنا إلى أنه تولى السلطنة قبل الظاهر بيبرس البندقداري ثلاثة سلاطين وهم على التوالي السلطان المعز أيبك التركماني ٦٤٨/ ٦٥٥ هـ = ١٢٥٠/ ١٢٥٧م ثم الملك المنصور نور الدين علي بن المعز ٦٥٥/ ٦٥٧ هـ = ١٢٥٧/ ١٢٥٨م، فالسلطان المظفر سيف الدين قطز ٦٥٧/ ٦٥٨ هـ = ١٢٥٨/ ١٢٥٩م، وقد تميز موكب تولية هؤلاء السلاطين الثلاثة ببساطته، أما عن صفة هذا الاحتفال فتمثل أساساً في اجتماع الأمراء وتوليتهم للسلطان الجديد من بينهم، فقد كان للأمراء القوة التي تمكنهم من تولية السلطان الحكم.

أما موكب الاحتفال بهؤلاء السلاطين أي في بداياته، فإنه يتميز ببساطته، ويتمثل أساساً في اجتماع كبار الأمراء وعقد البيعة للسلطان الجديد الذي يركب بالسناجق شاقاً القاهرة باتجاه القلعة وقد حملت بين يديه الغاشية و ((حملت على رأسه القبة والطير)) [2].

ويظهر من خلال هذا الوصف أن السلطان يظهر ببعض عناصر شعائر السلطنة التي تتمثل في السناجق, وهي الرايات, أو الأعلام السلطانية [3]، أما الغاشية فهي كما وصفها القلقشندي ((سرج من أديم محزوزة بالذهب... تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحفلة)) [4]. وهي خاصة بالسلطان. أما القبة والطير اللتان يحملهما السلطان الجديد على رأسه فهما

---

١ – الشجاعي, المصدر السابق, ص١٢٤.

٢ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٢٨٨. / بيبرس المنصوري, التحفة الملوكية، ص٢٧.

٣ – العيني, المصدر السابق، ص٣٤.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٧.

اللتان يسميهما القلقشندي بالمظلة أو الجتر وهي ((قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب)) (١).

أما عن رحلة الموكب فلا يوجد لها ذكر إلا في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي عند حديثه عن تولية السلطان المنصور بن المعز الذي ركب ((من القلعة إلى قبة النصر في موكب هائل ثم عاد ودخل القاهرة من باب النصر)) (٢).

ويذهب السلطان آخر مرحلة من مراحل الاحتفال إلى القلعة حيث يمد سماطاً سلطانياً للأمراء (٣). ثم تكتب البشارة بتولية السلطان. ويبدو واضحاً من صفة هذا الموكب ما أظهرت من بساطة خاصة عند تولية السلاطين الثلاثة الأوائل لدولة المماليك البحرية, مقارنة بما شهده من تعقيدات مع سلطنة الظاهر بيبرس ومَنْ بعده مِنَ السلاطين, ليكون بذلك مظهراً من مظاهر التركيز والتدعيم أسس الدولة المملوكية، ويعتبر السماط أيضاً من بقايا الدول العباسية والفاطمية ثم الأيوبية.

ويظهر أن هذه البساطة التي نلاحظها في موكب تولية سلاطين المماليك في بداية نشأتها يعود أساساً إلى أن الدولة كانت في بدايتها إضافة إلى الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تواجه هذه الدولة الناشئة. وحتى السلطان الظاهر بيبرس عندما تولى السلطنة على إثر قتله للسلطان المظفر قطز، فقد اقتصر موكب توليته في البداية سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م على مبايعة الأمراء له وتحليف ((سائر العساكر والوزراء وأرباب الوظائف والأقلام، فحلفوا جميعاً)) (٤). دون أن يركب بشعائر السلطنة مدة طويلة ((وانقضت هذه السنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م ولم يركب موكب السلطنة أحد)) (٥). وهو ما يعني أن السلطان الجديد الظاهر بيبرس لم يشأ الركوب في موكب إلا بعد أن يكسب الأمراء, ويستميلهم, وخاصة الكبار منهم, وهو ما يؤكده المؤرخ بيبرس المنصوري من أن السلطان بيبرس البندقداري ((مكث شهوراً ثلاثة لم يركب موكباً ولم يطلع له في أفق الراكب كوكب إلى أن أيقن أمره وأمن من كل ذي مكر مكره ثم ركب بعد ذلك)) (٦).

---

١ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٧.

٢ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص٤١.

٣ – المصدر السابق، ج٧، ص٤١.

٤ – العيني, المصدر السابق، ص٢٦٢.

٥ – المصدر السابق، ص٢٦٢.

٦ – بيبرس المنصوري, التحفة الملوكية، ص٤٥.

وبعد أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من احتواء أعدائه ومنافسيه، وبعبارة ابن تغري بردي ((بعد أن تمّ أمره في السلطنة وأطاعته العساكر)) [١]. ركب السلطان الظاهر ((بشعائر السلطنة وأظهر المهابة المتمكنة وشق المدينة وقد زخرفت بالزينة ونثرت عليها الدنانير والدراهم وأفيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمتعممين على تفاوت أقدارهم)) [٢].

وقد كان ركوب السلطان في رحلة من قلعة الجبل بشعار السلطنة شاقاً القاهرة مروراً بباب النصر وباب زويلة ((والأمراء وأعيان الدولة مشاة في خدمته)) [٣].

أما عن صورة هذا الاحتفال النهائي لتولية سلاطين المماليك، فقد كانت له مراحله وترتيبه وسيرورته كما تظهر به شعائر السلطنة،والتي سماها ابن خلدون إشارات الملك التي كانت تعكس بذخ السلاطين [٤].

ويبدأ هذا الاحتفال باجتماع الخليفة, والقضاة الأربعة, وكبار الأمراء [٥] بدار العدل أو كما يسمى أيضاً الإيوان وهي قاعة ضخمة بالقصر السلطاني فيها تقع كتابة التقليد أو التفويض للسلطان الجديد بالسلطنة, وهذا التفويض الصادر عن الخليفة يضمن شرعية حكم السلطان الجديد وبه يتولى شؤون مصر وشؤون المسلمين كافة، ويتلى هذا التقليد وتكون تلاوته من قبل كبير موظفي ديوان الإنشاء، وما يهمنا هو ما يظهر في هذا التقليد من العبارات التي تبرز تفويض السلطان من طرف الخليفة على البلاد الإسلامية، والتي يعبر عنها الخليفة في التقليد بقوله ((فوضت إليك جميع أحكام المسلمين)) [٦].

وفي مرحلة ثانية وبعد قراءة التقليد عن لسان الخليفة فالقضاة والأمراء على حسب مراتبهم لمبايعة السلطان الجديد، وعلى إثر ذلك يلبس الخليفة السلطان شعائر السلطنة والتي تعني أنواع الملابس والأدوات والتراتيب التي كان السلطان يظهر بها في الموكب مثل موكب التولية.

---

١ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١٠٢.

٢ – العيني, المصدر السابق، ص٢٨٨– ٢٨٩.

٣ – النويري, المصدر السابق، ج٣٠، ص١٧.

٤ – ابن خلدون, المقدمة، ص٢٨٤.

٥ – ابن شاهين, المصدر السابق، ص٨٦.

٦ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٥٥٨.

ويتمثل لباس السلطان عادة في هذه المناسبة ارتداء عمامة سوداء لها عذبة مذهبة, وجبَة سوداء بزيق وأكمام واسعة [١] وتسمى هذه الجبة أيضاً الخلعة الخليفية، ويحمل السلطان أيضاً سيفاً ذو حمائل يسمى أيضاً بالسيف العربي [٢]، ومما يلاحظ أن لباس السلطان يتميز بلونه الأسود وهو شعار الدولة العباسية [٣] عموماً وهو رمز الحصول على التفويض من الخليفة العباسي والحكم باسم الخلافة العباسية، فالخليفة العباسي عندما كان يتولى الخلافة يظهر بهذه الملابس وتقدم للسلطان بهذه المناسبة فرس بسرج مذهب مزدانة بالثياب والحلي كما أن الفرس الذي يركبه السلطان يوم توليته كان يسمى فرس النوبة وهو خاص بهذه المناسبة ولا يركبه إلا السلطان الجديد عند توليته.

وتلي هذه المرحلة، مرحلة اختيار لقب وكنية للسلطان الجديد، وعادة ما يكون هذا الاسم مركباً وذو صبغة دينية مثل سيف الدين، ركن الدين، وكنية مثل المظفر والظاهر... وأكثر من ذلك تعبيراً ورمزية أن السلطان الظاهر بيبرس لقب ((بقسيم أمير المؤمنين)) وهو أول من لقب بهذا اللقب من السلاطين, كما حرص سلاطين المماليك على اكتساب صفة الملك من خلال تلقيبهم بالملوك التي كانت تسبق تسميتهم مثل السلطان الملك الظاهر بيبرس، والسلطان الملك المنصور.

وبعد الانتهاء من اختيار لقب وكنية للسلطان الجديد تأتي مرحلة طواف موكب السلطان بالقاهرة، والذي يشق القاهرة وسط اندهاش العامة بهيبة السلطان وعظمته, وقد كان دور العامة الفرجة و تهيئة المدينة وزينتها عادة عند تولية السلطان الجديد [٤].

أما عن هيئة السلطان في هذا الموكب، فإنه يكون على الفرس التي يختص السلطان الجديد بركوبها عند توليته، وتكون عليها الرقبة التي تعتبر من شعائر السلطنة وهي طوق من حرير أصفر مزركش بالذهب توضع على رقبة الفرس من أذنيه إلى نهاية عرفه [٥] والتي خلعها عليه الخليفة. وقد نشر فوق رأسه القبة والطير وهما من شعائر السلطنة، أما القبَّة فيبدو أنها كانت تتمثل في شبه مظلة من الحرير المزركش والمموه بخيوط من

---

١ – ابن عبد الظاهر, تشريف الأيام والعصور، ص٢٩٥.

٢ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٩.

٣ – ابن خلدون, المقدمة، ص٢٨٦.

٤ – ابن كثير, المصدر السابق، ج١٤، ص٢٤٠.

٥ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٧.

ذهب [١]، أما الطير فكان من الذهب ويوضع فوق القبة [٢] والتي يسميها القلقشندي بالجتر [٣]، وهي من الحرير الأصفر وكانت تحمل فوق رأس السلطان، وهناك العصائب السلطانية وهي رايات صفر مطرزة بذهب تحمل لقب السلطان واسمه [٤].

ويذكر ابن خلدون أن ظهور الرايات وكثرتها كانت تحدث نوعاً من الرهبة ولها تأثير في النفوس وإيحاء بهيبة السلاطين [٥] واللون الأصفر لون رمزي؛ لأنه يمثل اللون المميز للدولة المملوكية.

ويشق السلطان القاهرة في أبهة وقد حمل التقليد على رأسه في كيس من حرير أسود ويحمل هذا التقليد الوزير ويكون بصحبته ((الأمراء وأرباب الدولة مشاة بين يديه حتى يطلع إلى القلعة في ذلك الموكب العظيم)) [٦].

وبعد أن ينتهي السلطان من طوافه في شوارع القاهرة، يعود إلى القصر بالقلعة حيث يقبل الأمراء الأرض أمام السلطان [٧] تذللاً ورمزاً للولاء والخضوع له. كانت ترافق موكب السلطان ((الجاويشية تصيح والشبابة السلطانية ينفخ بها الطبرادية حواليه)) [٨]. وكانت وظيفتهم ضرب الطبول وعزف موسيقى جيشية توحي بالقوة ،وتثير نوعاً من الرهبة في صفوف العامة خاصة الذين كانوا يخرجون بأعداد غفيرة لمشاهدة طواف موكب السلطان، ويلاحظ أن الموسيقى المصاحبة للسلطان كانت جيشية وظيفتها إيقاع الرهبة ولا يقصد منها اللهو.

وآخر مرحلة من الاحتفال يمد سماط سلطاني ضخم، وهو أيضاً من بقايا فاطمية كما يقوم السلطان بالخلع على أمرائه وأرباب الوظائف [٩], وكسب ولاء كبار الأمراء ويخلع على الخليفة أيضاً.

---

١ – القلقشندي, االمصدر السابق، ج٤، ص٨.

٢ – العمري, مسالك الأبصار، ص٣٣.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٨.

٤ – العمري, مسالك الأبصار، ص٣١.

٥ – ابن خلدون, المقدمة، ص٢٨٥– ٢٨٦.

٦ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٣٥١.

٧ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٩.

٨ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٩./ الشجاعي, المصدر السابق، ص٢٠٤.

٩ – الشجاعي, المصدر السابق، ص١٢٨./ المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٢٨./ ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٤٣١.

تختلف الخلع والتشاريف السلطانية باختلاف رتب الأمراء، وأيضاً باختلاف المناسبة، ويذكر القلقشندي أن اختلاف التشاريف يكون حسب الأمراء ومكانتهم وقربهم من السلطان، فتشاريف الأمراء ((فوقاني أطلس أحمر بطراز مزركش)) [١].

أما عن المناسبات التي يتم فيها خلع تشاريف على الأمراء، فيكون ذلك عند تولية أمير جديد. ويخلع السلطان على القاضي والناظر وكل من يخدمه في الموكب.

يتضح من خلال دراسة مراحل تولية السلطان، والظروف والترتيبات المصاحبة لموكب توليته أنَّ المماليك نجحوا في التوفيق والجمع بين التقاليد الإسلامية وغيرها من التقاليد التركية من خلال ربط الاسم التركي للسلطان باللقب الإسلامي الذي يحصل عليه بعد توليته والنظم والتقاليد المملوكية [٢] التي تظهر مع ظهور الوظائف التي تولاها بعض الأمراء الذين كانوا في خدمة السلطان، والتي كانت من استحداث السلطان الظاهر بيبرس في إطار تدعيم دولته.

كما يتبين مدى إدراك المماليك لقضية الرموز وخاصة تميزهم باللون الأصفر الذي يبرز في الأعلام السلطانية. كما يعد التطور الذي شهده موكب تولية السلطان دليلاً لتطور دولة المماليك ونظمها ويعتبر تعدد الشعائر مظهراً من مظاهر البذخ وثراء السلاطين.

٣- الاحتفال بترقية المماليك

كان المماليك من أصول عرقية مختلفة قبجاقية تركية من جنوبي روسيا والقوقاز...، يصلون القاهرة عن طريق الشراء من تجار الرقيق الذين كانوا في أغلبهم من الأوربيين [٣].

فقد كانت الطبقة الحاكمة تقوي نفسها بما يجلب إلى مصر من المماليك بانتظام وفي أعداد كبيرة، باعتبار أن الحرب كانت وظيفتهم, وكانت مقتصرة عليهم, في حين لم ينخرط أبناء المماليك صغار السن المجلوبين، فقد كان السلطان المملوكي يشتري ما يلزمه من المماليك بأعداد كبيرة لاستخدامهم

---

١ - صبح الأعشى, ج٤، ص٥٣.

٢ - Andre Glot. L'Egypte des mamluks, 1969, P. 106

٣ - ماجد عبد المنعم, المرجع السابق، ص١١- ١٢.

في الجيش، وقد بالغ بعض سلاطين المماليك في شراء المماليك, حتى بلغت مشتريات السلطان قلاوون مثلاً اثنا عشر ألفاً وهو عدد لم يجمعه أحد من سلاطين مصر قبله [١].

ويعد هؤلاء المماليك الذين اشتراهم السلطان من المحظوظين ويسمون بالمماليك الأجلاب، فقد كانت عناية السلطان بهم فائقة إضافة إلى أنهم كانوا الأكثر حظاً في الترقي. هذا ويختلف ثمن المملوك حسب قيمته، فمثلاً: الظاهر بيبرس الذي هو في الأصل مملوك [٢] بيع بثمن بخس بحوالي ثمان مئة درهم؛ لأنه كان أعوراً في حين بيع قلاوون بألف دينار لبعض مميزات توفرت فيه ولذلك سمي بالألفي نسبة لثمن شرائه [٣].

ويخضع هؤلاء المماليك منذ شرائهم إلى تربية خاصة دينية إسلامية وعسكرية تمتد بعض السنين، وقد أعدت لهم أماكن خاصة تسمى الطباق يقع تكوينهم فيها، وقد سمي هؤلاء المماليك الذين ينزلون بالطباق باسم مماليك الطباق أو المماليك الكتابية نسبة للمكان الذي يتمَون فيه تدريبهم المدني والعسكري.

ويتعلم هؤلاء المماليك الصغار بالطباق العلوم الدينية الإسلامية على أيدي الفقهاء والمؤدبين، ويبدؤون بقراءة القرآن, والخط, فآداب الشريعة, والصلاة, والإذكار، وقد اعتنى السلاطين بالتكوين الديني لمماليكهم؛ لأنه شرط الدخول في الخدمة هو الإسلام.

وعندما يصل هؤلاء المماليك إلى سن البلوغ ينتقلون إلى تعلم أنواع الفنون الحربية من فروسية ورمي السهام والنشاب ولعب الرمح.

أما فيما يتعلق بتكوين المماليك،فقد كان عدد منهم لا ينزلون للتعلم بالطباق, وإنما يتميزون بحصولهم على شرف التربية مع أبناء السلاطين، وبالتالي فهم أكثر حظوة من بقية المماليك السلطانية بالطباق؛ لأنهم كانوا يرتقون بسرعة في الوظائف والرتب العسكرية ليصل المحظوظ منهم إلى منصب السلطنة [٤].

---

١ – ابن دقماق, المصدر السابق، ص٣٠٦.

٢ – النويري, المصدر السابق، ج٣٠، ص١٣.

٣ – قاسم عبده قاسم, بعض مظاهر الحياة اليومية، ص١١.

٤ – العيني, المصدر السابق، ص٥٦.

وقد كان يخصص لهم كل مستلزماتهم وهم في الطباق يزاولون تكوينهم، فكان يخصص لهم الرواتب النقدية والعينية المتمثلة في الخبز واللحوم والتوابل [١]. غير أن باب الترقي لم يكن مفتوحاً أمام المماليك السلطانية إلا بعد أن يعتقهم السلطان, ليتمكنوا بعدها من الترقي في الوظيفة العسكرية من أمير خمسة، أو عشرين، أوخمسين إلى أمير مائة، أو ألف ليبلغ منصب السلطنة نفسه [٢].

وبالتالي يعد عتق المماليك السلطانية من أهم المراحل التي يمر بها المملوك السلطاني الذي يقع تكوينه بالطباق وقد خصص لهذه المناسبة وهي عملية عتق المماليك الكتابية احتفال هام وضخم يقع خلاله منح شهادة تسمى إعتاق أو عتاقة تفتح أمامهم باب الترقي في سلم الإمارة [٣].

وعلى إثر انتهاء مدة التكوين التي يحصل عليها المماليك السلطانية بالطباق، تكون مرحلة عتق المماليك، فيقام لهذه المناسبة الهامة احتفال خاص له طقوسه ورموزه ومراحله الثابتة، وهي مرحلة أساسية تمكن المماليك على إثر ذلك من الانضمام إلى الهرمية العسكرية المملوكية.

أما عن صورة الاحتفال بترقية المماليك فهو احتفال ضخم ومهيب, وله رموزه ومراحله الثابتة، ويبدو أن المماليك كان لهم وعي ومعرفة بهذه الرموز التي سعوا لإبرازها في كل احتفالاتهم وخاصة احتفال ترقية المماليك.

ويتمثل هذا الاحتفال في منح شهادة عتق، يبلغون بها مرتبة الجندية لتبدأ مرحلة جديدة في حياتهم وهي التدرج في الوظائف العسكرية، وبالتالي إعلان دخول المماليك في خدمة السلطان ضمن مجموعة جديدة منظمة ينتقل فيها من رتبة إلى أخرى حتى يبلغ المحظوظ منهم كرسي السلطنة، ولعل أبرز مثال على ذلك السلطان الظاهر بيبرس البندقداري.

ويتضح أن الاحتفال بترقية المماليك كان في بعض مراحله لا يختلف عن بقية الاحتفالات المملوكية. في كل الاحتفالات المملوكية والمواكب السلطانية لمعاينة هيبة الدولة وقوتها وقوة سلاطينها.

وفي آخر الاحتفال يمد سماط سلطاني كبير، أما العنصر المشترك الأخير في كل الاحتفالات والمواكب هو خلع التشاريف التي كانت تقدم بهذه المناسبة للأمراء الجدد ولأعيان الدولة بحسب

---

١ – العمري, مسالك الأبصار، ص٣٠.

٢ – العيني, المصدر السابق ، ص٦٥.

٣ – عبد المنعم ماجد, المرجع السابق، ص١٧– ١٨.

مراتبهم، وهذه العناصر جميعها ليست تقاليد جديدة أو من استحداث المماليك وإنما هي عادات موروثة عن الدولتين العباسية والفاطمية.

وهنا يجب الإشارة في البداية إلى أن هذا الاحتفال لا يخصص لمملوك واحد، بمعنى أنه ليس احتفالاً فردياً وإنما هو احتفال جماعي بمعنى يرتقي خلاله مجموعة من المماليك.

وخلال هذا الاحتفال العسكري كانت مجموعة من المماليك الكتابية من نفس الدفعة والمسماة أيضاً خرج تتحصل على شهادة عتق تضمن لهم حريتهم، وإنهاءهم فترة تكوينهم وتضمن لهم بالتالي الترقي السريع للوصول لأعلى المراتب ومنها السلطنة للمحظوظين منهم [١].

وقد كان الاحتفال يتمثل أساساً في أربع مراحل، أولها أنه كان احتفالاً جماعياً يضم مجموعة من المماليك دفعة واحدة، ثم تليه مرحلة أداء اليمين الذي يقدمه المماليك، أو الأمراء الجدد للسلطان، والمرحلة الثالثة حصولهم على شهادة الترقية أو كما تسمى شهادة العتق، وفي المرحلة الأخيرة الحصول على الوظيفة التي يختارها السلاطين للأمراء الجدد؛ لأن السلطان يختار عدداً يلحقهم بخدمته، ويطلق عليهم اسم الخاصكية [٢].

ويبدأ هذا الموكب كما جرت العادة عند المماليك بطواف المماليك المعنيين بالارتقاء ويضم هذا الموكب أساساً المماليك ويكون بصحبة هؤلاء المماليك المرشحين لإمارة الحرس السلطاني والمكلف باللباس والمسمى أمير جندار, والحجاب, وحامل العلم ويسمى أيضاً أمير العلم وحامل الرايات وهو السنجقدار، والأشاقي، والجاويشية، وتعد كثرة الأعلام وتعددها عنصراً من عناصر شعائر الملك, ومظهراً من مظاهر البذخ وإبراز الهيبة، وكانت ترافق الموكب أثناء طوافه في القاهرة الموسيقى العسكرية التي كان هدفها إيقاع الرهبة في أوساط العامة، أما الموسيقى التي كانت ترافق الأعياد هي موسيقى يقوم بها أرباب الملاهي.

أما بالنسبة لاحتفال ترقية المماليك أو الاحتفالات والمواكب السلطانية، فكانت الموسيقى تُقدَّم من قبل موسيقيين مختصين من الجيش المملوكي ولهم آلات خاصة مثل الطبول والشبابة... الخ. أما عامة الناس فقد اقتصر دورهم على الفرجة، وكانوا أساساً مدعوين لتهيئة المدينة في مثل هذه المناسبات.

---

١ – النويري, المصدر السابق، ج٣٠، ص١٣.

٢ – السيد الباز العريني, المرجع السابق، ص١٣٤.

وفي آخر مرحلة من مراحل طواف الموكب يتجه باتجاه مكان أداء اليمين وهو يمين الولاء والإخلاص للسلطان. أما مكان أداء اليمين والقسم للسلطان, فقد كان المدرسة الصالحية [١] ثم انتقل إلى المدرسة المنصورية [٢].

وبعد الانتهاء من مرحلة أداء اليمين بالولاء للسلطان، يقام سماط سلطاني ضخم، ويمد هذا السماط في المدرسة التي يقام عليها أداء اليمين، وإقامة السماط في الاحتفالات المملوكية ليس من استحداث المماليك، وإنما هو من عادات الدول السابقة من العباسيين والفاطميين... الخ. غير أن العادة في مد السماط في الدول السابقة كان يقام داخل قصور الملوك والخلفاء في حين أن التجديد مع المماليك يتمثل في أن السماط أصبح مع هؤلاء الأتراك يقدم في المدرسة أو في مكان أداء اليمين لما كان يرمز له هذا المكان من قدسية [٣].

بعد ذلك يرجع موكب المماليك باتجاه القلعة حيث أعدت الخلع والتشاريف للأمراء الجدد وتتمثل هذه الخلع أساساً في الشربوش [٤] وحياصة [٥] مزينة بالذهب والحلي يقدمها السلطان بنفسه ويلبسها للأمير الجديد، وترمز هذه الحركة لتجديد علاقة الولاء والأستاذية التي تربط السلطان بهؤلاء الأمراء الجدد. ولعل رمزية هذه الخلع التي يمنحها السلطان للأمراء الجدد في الألوان التي تميزت بها وهما اللون الأزرق والأصفر.

أما آخر مرحلة من احتفال ترقية المماليك, فتتمثل في منح وثيقة أو شهادة العتق، وذلك بعد وصول موكب المماليك إلى قصر السلطان في قلعة الجبل، ويكون معتق المملوك هو أستاذه أما رفاقه المتخرجون معه فيسمون خشداشيته.

---

١ – سبب اختيار المدرسة الصالحية مرتبط بالقدسية للمكان التي أضفاها المماليك أنفسهم، باعتبار قبر الصالح أيوب موجود فيها. للمزيد المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٣٩/ السيد الباز العريني, المرجع السابق، ص١٣٦– ١٣٧.

٢ – تغير المكان من الصالحية إلى المنصورية يعود أساساً إلى تغلب طائفة المماليك المنصورية على الطائفة الصالحية. وقد كان لهذا الاختيار دوافعه وكل يصب في إطار اختراع المماليك لحكايا تخدم مشروعهم السياسي والبحث عن القدسية والشرعية لحكمهم. للمزيد السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٨٥.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج١٣، ص٢١٩.

٤ – الشربوش: هو القلنسوة وهي نوع من القبعة وتكون شعاراً للإمارة، ويرمز لارتقاء الملوك.

٥ – الحواص: قطعة تشد حول الوسط وهي من المنح السلطانية وتكون من الذهب أو الفضة وتمنح للأمراء حسب رتبهم.

أما وثيقة التولية فإنها تضمن لهم الإمرة والحصول على إقطاع، وتختلف أهمية الإقطاع حسب رتبة الأمير، ومن شروط استحقاق الإقطاع إلى جانب عتق المملوك وحريته أن يكون بعد سن البلوغ, وأن يكون المترشح مسلماً ومعافى من كل عاهة أو عجز خلقي, وفي آخر الاحتفال يمنح السلطان ألقاباً للأمراء الجدد وهي ألقاب ذات صبغة دينية تبدأ بكلمة دين، مثل سيف الدين وحسام الدين... الخ.

ويلاحظ هنا أيضاً ما توصل إليه المماليك من جمع بين العادات والأسماء التركية وإضافة ألقاب ذات صبغة دينية لأسمائهم التركية, ولكل ذلك رموزه, فهم يسعون من وراء ذلك إلى اكتساب هذه الصبغة الدينية على مستوى الألقاب.

ويقوم السلطان بمنح شعار الوظيفة أو كما يسمى الرنك [١] ويكون الشعار حاملاً لصورة ترمز للوظيفة التي تولاها الأمير الجديد ،وقد كان السلطان يختار من هؤلاء الأمراء بعضاً منهم لتولي مناصب إدارية في الدولة, وذلك للتخلص من بعض كبار الدولة الذين أصبحوا يشكلون خطراً على الدولة.

وبخصوص الاحتفال بترقية المماليك السلطانية تجدر الإشارة إلى أن العادة بإقامة هذا الاحتفال قد انتهت بزوال دولة المماليك البحرية ووصول المماليك الجراكسة إلى الحكم.

ولعل زوال هذه العادة كانت سبباً من أسباب زوال دولة المماليك باعتبار أن هذا النظام كان يضمن لهم تربية دينية مدنية وعسكرية للمماليك وبزواله أصبح المماليك ذوي صفات سيئة فكثر بذلك الفساد والانحلال الأخلاقي [٢].

ثانياً – الاحتفالات السلطانية:

ونقصد بالاحتفالات السلطانية تلك الاحتفالات المرتبطة بشخص السلطان بعد اعتلائه عرش السلطنة، كشفائه من مرض أو عودته من الحرب منتصراً، وخاصة في تلك الحقبة التي كان الخطران الصليبي والمغولي يهددان أمن الدولة واستقرارها.

---

١ – أحمد (عبد الرازق): الرنوك في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف, القاهرة, ١٩٩١, ص٧٨.

٢ – قاسم عبده قاسم, بعض مظاهر الحياة اليومية، ص٧– ٨.

كان إبعاد خطر التتار عن مدينة الشام العاصمة الثانية لدولة المماليك، أو استرجاع مدينة كانت تحت سيطرة القوى الصليبية مناسبة احتفالية لما ترمز له من قوة وهيبة السلطان, وحرص سلاطين المماليك على الظهور بمظهر حماة الديار الإسلامية والمسلمين ،وذلك في إطار تدعيم شرعية حكمهم في مصر.

وبذلك كان رجوع السلطان لقلعته في القاهرة عاصمة ملكه بعد فتح حصن أو مدينة أو دفع خطر داهم مناسبة احتفالية هامة يُسر لها العامة والمماليك وكبار الأمراء، ويستعد الجميع لهذا الحدث بتهيئة المدينة لهذا الحدث السعيد بتزيين الأسواق والشوارع والدكاكين التي يمر بها موكب السلطان, وتخرج العامة لاستقبال السلطان المعافى أو المنتصر في إطار صاخب، والتي يظهر من خلالها مدى تعلق العامة بسلاطينهم والأهم من ذلك هيبة السلاطين وقوتهم [١].

وعند عودة السلطان من رحلة خارج مصر وخاصة من الشام بعد استرجاع مدينة من يد القوى الصليبية المتواجدة هناك, أو لدفع خطر التتار عن البلاد المجاورة، عندها يقع الاحتفال برجوعه مظفراً من الحرب آمناً سالماً ومنتصراً على العدو، فتعلن بهذه المناسبة الاحتفالات الصاخبة بعاصمة الملك بالقاهرة، فكان ينادي في القاهرة ومصر بتهيئة الشوارع والدكاكين، وخاصة في الأماكن التي يمر بها موكب السلطان ،وكلما كان السلطان أكثر شعبية كلما كان استعداد العامة واحتفالهم برجوعه أكثر تلقائية وأكثر اهتماماً [٢]. مع العلم أنه في الغالب كانت السلطة تجبر العامة وتأمرهم بتهيئة المدينة استعداداً لاستقبال السلطان.

أما عن المظاهر الاحتفالية بعودة السلطان مظفراً لمقر حكمه, فتتمثل في استقباله في إطار حافل وصاخب يشارك فيه الخاصة والعامة، ويكون في هذا الاحتفال من الضخامة ما يرمز لمكانة السلطان وهيبته وتفوق قوته, وقد كان الاحتفال يقع في مرحلتين,ومكانين مختلفين: فيكون الأول في شوارع القاهرة أثناء مرور السلطان شاقاً المدينة باتجاه قصره، ويحتشد العامة بالشوارع التي يمر منها شاقاً المدينة, فيحتفلون به تعبيراً عن مشاعرهم وفرحهم بعودته سالماً, ويمكن أن نسميه بالاحتفال العام الذي يشارك فيه عامة مصر وخاصتها. أما المرحلة الثانية من الاحتفال فتكون بقصر السلطان بقلعة الجبل وهو احتفال خاص؛ لأنه لا يحضره سوى الخاصة من الأمراء وكبار موظفي الدولة الذين

---

١ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٣٣٠ و ٥٤٣.

٢ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٣٨٢.

يحتفلون برجوع السلطان على طريقتهم الخاصة. وبدخول السلطان العاصمة تفرش له الشوارع بشقف الحرير حتى باب قصره ويكون احتفالاً عظيماً.

وقد كانت العادة عند رجوعه من الحرب أن يسبقه أحد الأمراء ببشارة النصر وعودة السلطان آمناً غانماً [١]، فتدق البشائر لهذا الخبر السعيد, فيسرع العامة لتزيين المدينة، وشوارعها, ودكاكينها استعداداً لقدوم السلطان المنتصر في موكب شبيه بموكب التولية ،فيكون من الأيام المشهودة [٢]، ويتنافس الجميع حتى أن الأمراء كانوا يتفننون في نصب القلاع [٣].

وفي الليلة المقررة لوصوله يخرج الناس لاستئجار الأماكن التي يقضون فيها ليلهم استعداداً للفرجة، وهو مايظهر مدى اهتمام أهل مصر آنذاك بمعاينة موكب السلطان, ويُعبَّر عن هذا الشغف بضخامة وعظمة موكب السلطان وخاصة الهيبة التي فرضها هؤلاء السلاطين على العامة لاستقبالهم استقبال المجاهدين الأبطال.

وتضرب الكوسات [٤] بالقلعة والطبلخاناة [٥] بدور الأمراء، ولا تضرب الموسيقى إلا بدور أمير الطبلخاناة, وهذه الموسيقى كانت تدق عند استقبال السلطان لما تحدثه من الرهبة والقوة في نفوس العامة.

وفي يوم وصول السلطان يخرج عامة مصر قاطبة لاستقباله وعلى رأسهم القضاة والأعيان والأمراء، ويشق السلطان المدينة باتجاه القلعة في موكب حافل [٦] وقد حملت على رأسه القبة والطير وهما من شعار الملك ورموزه، والتي سبق وتعرضنا لهما، وشعار الملك من خصائص السلاطين ولا

---

١ – ابن إياس, بدائع اللبزهور، ج١، ص٢٨١ و ٥٤٣.

٢ – ابن دقماق, المصدر السابق، ص٣٣٤.

٣ – ابن تغري بردي, النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٧. / المقريزي, السلوك، ج١، ص٧٠١.

القلاع: جمع قلعة فالراجع أن المقصود بها قلاع خشبية تزين بها الطرقات احتفالاً بمقدم السلطان والتي يسميها البعض أقواس النصر.

٤ – الكوسات هي كما عرفها القلقشندي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بإحداهما على الآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وشبابة. للمزيد القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٩.

٥ – الطبلخانات: هي في الأصل لفظ فارسي تعني الفرقة الموسيقية في السلطانية. للمزيد محمد دهمان, معجم الألفاظ التاريخية، دار الفكر, دمشق, ١٩٩١, ص١٠٦.

٦ – الشجاعي, المصدر السابق, ص١٦٨.

يحق لأحد استعماله في الموكب ويشق السلطان المدينة وهي في غاية الزينة، وتدوم الاحتفالات خمسين يوماً [١] .

ويبدو أن موكب السلطان في هذه المناسبة قد كان له ترتيب معين بدأ مع السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، واعتاد بقية السلاطين من المماليك على إتباعه وهذا ما نفهمه مما ذكره النويري في نهاية الأرب خلال تعرضه للاحتفال بعودة الظاهر بيبرس للقاهرة على إثر انتصاره على التتار سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢م عندما قال بصريح العبارة ((وعلى نهج بيبرس سار بقية السلاطين)) [٢].

وغالباً ما كان سلاطين المماليك يبرزون قوتهم وانكسار عدوهم أمام العامة وهم يشقون القاهرة ((وأسارى التتار بين يدي المواكب ما بين ماشٍ وراكب وسناجقهم (وهي الرايات) بأيديهم منكوسة وطبولهم على أكتافهم معكوسة, وأعناقهم مغلولة, والأعلام السلطانية منشورة)) [٣].

ودخول السلطان على هذه الهيئة بحضور عامة مصر كافة، وأسرى التتار معه فيه نوع من القوة وبث الرهبة, ودورهم كان كحماة للإسلام وديار الإسلام, ويشق السلطان المدينة في هذا الموكب المهيب من باب النصر باتجاه القلعة، وفي خدمته الأمراء والسلطان ((يمشي الهوينا وينظر هذا السرور الذي أقر له وطلع إلى القلعة بما نال من القصد)) [٤] وقد اصطف المغنون على طول الدكاكين والشوارع من الرجال والنساء،ودقت لهم الطبول والزمور وسط دعاء الناس لهم وتهليلهم بهذا النصر العظيم.

ويلاحظ هنا أن دق الطبول لا يقتصر على الأمراء وإنما كان العامة أيضاً يساهمون في هذا الاحتفال بالغناء والطرب ولكن ذلك كان يقوم به المغنون وأرباب الملاهي.

وعند وصول السلطان لقصره في القلعة تبدأ المرحلة الثانية من الاحتفال، فقد جرت العادة أن يقيم السلطان حفلاً خاصاً مع مماليكه وأمرائه احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة يظهر فيها أنواع اللهو والمرح، ويخلع فيها السلطان على أمرائه وسائر موظفي الدولة في حركة تعني تجديد ربط صلة الولاء

---

١ – ابن أيبك الدوادار, الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، نشر روبرت رويمر, القاهرة, د.ت, ج٩، ص٨٢./ النويري, المصدر السابق، ج٣٠، ص٨٢.

٢ – المصدر السابق، ، ج٣٠، ص٨٣.

٣ – المنصوري,التحفة المملوكية، ص٨٢.

٤ – الشجاعي, المصدر السابق ، ص١٦٨.

وتوثيقها مع مماليكه الذين يمثلون سبب قوته [١] ولعلنا نتبين صورة هذا الاحتفال الذي أقيم في القلعة بعودة السلطان منتصراً على جيش التتار سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م ((ولما قرت عين السلطان بهذه الأفراح المتتابعة، واجتنى ثمرات هذه المسرات اليانعة جميع الأمراء والأكابر ومقدمي العساكر, في مجلس اتخذه للأنس وأعده للهو والانشراح, فجلسوا للشراب ودارت عليه بالقمز الأكواس والأكواب... وخلع السلطان عليهم جميعاً وأعطاهم عطاءً واسعاً ومر ذلك اليوم في لهو, وسرور, وجدل، وحبور, واجتماع يبسط الآمال ومزاح يرضي الصدور)) [٢] وقد جرت العادة في مصر المملوكية أن يستقبل السلطان عند عودته للقاهرة منتصراً بعد إخماد ثورة, أو عصيان أحد أمرائه بأقاليمها , حيث انتشرت هذه الظاهرة وكان ذلك بسبب سعي بعض الأمراء إلى إعلان الخروج عن طاعة السلطان والتمرد أو حتى إعلان سلطنته.

كما تعرض المؤرخ الشجاعي لوصف الاحتفال بعودة السلطان سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م مظفراً من دمشق بعد عزل الأمير حسام الدين لاجين الذي خرج عن طاعة السلطان [٣]. ويشار هنا إلى استثناء تمثَّل في الاحتفال بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون للحكم في مناسبتين، فقد تعرض هذا الأخير للإبعاد عن السلطنة من طرف كبار أمراء المماليك, وكان ذلك في مناسبتين، أما الأولى فكانت سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٩٨م بسبب صغر سنه [٤] وانفراد الأميرين كتبغا ولاجين بالحكم، ولدى عودته لعرش السلطنة احتفل العامة بقدومه بحفاوة لشدة ما كانوا يتكبدون من معاناة ممن كانوا قبله وعاد مرة ثانية للحكم [٥] بعد أن أُبعد سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م بعد استيلاء بيبرس الجاشنكير على الحكم، وقد استقبل السلطان الناصر بعد عودته للحكم للمرة الثالثة في احتفال عظيم شبيه بالاحتفال الذي يقام للسلطان لدى عودته منتصراً من الحرب أو بتولية سلطان جديد.

---

١ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٥٤٤.

٢ – بيبرس المنصوري, المصدر السابق، ص١٠٥.

٣ – الشجاعي, المصدر السابق ، ص١٢٩.

٤ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٤١٤.

٥ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٤٣١.

ولعل عامة أهل مصر قد بالغوا في الاحتفال بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون للحكم لقربه من الشعب وهو ما خلق علاقة حميمية غريبة بين هذا السلطان وأهل مصر، فكان الاحتفال برجوعه للسلطنة احتفالاً عظيماً لا مثيل له وقد ((ركب السلطان موكباً ارتجت له الأرض))[١].

كما ذكر ابن تغري بردي صورة الاحتفال برجوع السلطان الناصر محمد بن قلاوون لعرش السلطنة سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠م حيث ظهر من خلاله أنه احتفال فاق التوقعات برجوع السلطان منتصراً من الحرب ((فخرج الأمراء وجميع الناس قاطبة للقائه وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر منهما أحد فرحاً بقدومه وكان خروجهم في يوم السبت وأظهر الناس لعودته إلى الملك من السرور ما لا يوصف ولا يحدّ من الزينة وزينت القاهرة ومصر بأفخر زينة)) [٢].

١- الاحتفال بمعافاة السلطان من المرض:

إذا ألمَ بالسلطان مرض ثم شُفي احتفل بذلك احتفالاً كبيراً, ويهتم بذلك الخاص والعام [٣] فكانت تعلن البشائر بشفاء السلطان وينادي بتزيين الحواضر والمدينة [٤] وتقام الزينة بهذه المناسبة لعدة أيام [٥].

آ- الاحتفالات الشعبية:

كان أهل مصر من عامة الناس يتنافسون ويتفاخرون في تزيين دكاكينهم، وشوارع مدينتهم في هذه المناسبة سواء كان ذلك من تلقاء أنفسهم للحصول على رضا السلطان أو بأمر من السلطة نفسها. وكان يظهر في هذه الزينة كل أنواع الترف والتباهي، فالناس يجتمعون لرؤيته في أماكن يستأجرونها خاصة لمعاينة موكب السلطان وهو ما ذكره المقريزي لدى حديثه عن ركوب السلطان بعد

---

١ – الشجاعي, المصدر السابق ، ص٢١٣. / ابن كثير, المصدر السابق ، ج١٤، ص١٥.

٢ – ابن تغري بردي, المصدر السابق ، ج٨، ص١١٦.

٣ – الشجاعي, المصدر السابق ، ص١٠١.

٤ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٥٢٠.

٥ – الشجاعي, المصدر السابق ، ص١٠١.

معافاته في سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م ((*وفي الحادي عشر من صفر ركب السلطان بعدما انقطع لما ألم به كسر يده نحو شهرين ونزل إلى الميدان ودقت البشائر، وزينت القاهرة ومصر، وكتبت البشائر إلى الأعمال بذلك وكان يوم ركوبه من الأيام المشهورة اجتمع الناس لرؤيته من كل مكان وأخذ أصحاب الحوانيت من كل شخص أجرة جلوسه نصف درهم فضة*)) [١].

اجتمع في هذه المناسبة أرباب الملاهي الذين كانوا يشاركون في إحياء هذه الليالي السعيدة بالغناء والطرب واللهو، ويذكر المقريزي مشهداً دقيقاً عن الاحتفال بمعافاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٦م الذي كسرت يده إثر تقنطره عن فرسه عندما كان في نواحي قليوب يتصيد ((*ثم عوفي السلطان فتزينت القاهرة ومصر... وتفاخر الناس في الزينة بحيث لم تعهد زينة مثلها وأقامت أسبوعاً تفنن أهل البلد فيه بأنواع الترف... وقد اجتمع أرباب الملاهي في عدة أماكن بجميع آلات المغنى*)) [٢].

ب- احتفالات الخاصة

أما عن مظاهر احتفال الخاصة ونقصد بهم الأمراء والمماليك بمعافاة السلطان من المرض، فقد كان هؤلاء يتنافسون أيضاً في إظهار سرورهم بشفاء السلطان, فكانوا يعملون الولائم ومما يذكر أن الأمير ملكتمر الحجازي سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠م واحتفالاً بمعافاة السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون من كسر بيده، قام هذا الأمير بعمل نفط [٣] كثير ((بسوق الخيل تحت القلعة فاجتمع الناس من كل جهة لرؤيته)) [٤] وقد كان الأمراء يتنافسون في ذلك لأجل كسب رضا السلطان؛ لأن الأمراء كانوا رغم قوتهم يخشون من انقلاب السلاطين عليهم وخاصة منهم السلاطين الأقوياء.

وكانت الألعاب النارية تقام تحت القلعة مع اللعب بالرماح [٥] كان يخلق نوعاً من الفرجة شبيه بالمهرجان لما يصاحبها من ((المغاني واللهو والخيالات)) [٦] وأكثر من ذلك كان كل أمير يقيم الأفراح

---

١ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٨٣١– ٨٣٢.

٢ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٣١٨.

٣– نفط: نوع من الألعاب النارية التي يطلقها الأمراء في الاحتفالات.

٤ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٥٢٠.

٥ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٥٢٠.

٦ – الشجاعي, المصدر السابق ، ص١٠١.

في بيته, وتتواصل الاحتفالات لعدة أيام, وتصحبها الموسيقى الجيشية، فتضرب الكوسات وكذلك طبلخانـــــاة الأمـــــراء ((ولـــــم يبـــــق أميـــــر إلا وعمـــــل فـــــي بيتـــــه فرحاً)) [١].

وقد كانت عادة السلطان في هذه المناسبة توزيع الصدقات من الخبز والملابس ((مع جمل من المال)) [٢]. ويدخل ذلك في إطار كسب ولاء وعطف العامة, واستمالتهم, كما كان السلطان يخلع وكعادته على أمرائه بحسب رتبهم ويخلع على الطبيب الذي عالجه وساهم في شفائه.

٢- ركوب السلطان لميدان اللعب:

اعتاد سلاطين المماليك الركوب في ميدان اللعب في إطار موكب ضخم, واحتفال مهيب, وقد كان هذا الموكب متميزاً عن بقية المواكب السلطانية لخصوصية المناسبة ومن أهم الألعاب التي كان يتجه إليها السلاطين لعب الكرة ((الصولجان)) [٣] , فقد كان السلطان يركب من القلعة باتجاه الميدان الكبير المخصص لممارسة الصولجان. كانت عادة السلطان أن يركب للعب الكرة بعد وفاء النيل أما عن عدد المرات التي يركب فيها السلطان للعب الكرة، فقد كان مرتبطاً بمدى شغف السلطان بهذه اللعبة، وعموماً كان السلطان ينزل ثلاث مرات في الأسبوع، ويكون ذلك ((ثلاث مرات متوالية في كل سبت)) [٤]. ويكون ركوب السلطان لميدان لعب الكرة في أول النهار من باب الإسطبل، وهو في هيئة مشابهة لهيئته في ركوب يوم العيد ما عدا الحبتر [٥].

وبالتالي فإن سلاطين المماليك كانوا يحرصون على الركوب إلى الميدان للعب الكرة، على الظهور بشعائر السلطنة، مثل ركوبه في موكب الأعياد ما عدا بعض الاختلاف المتمثل في غياب الجتر.

---

١ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٣١٨.

٢ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٥٢٠.

٣ – الصولجان: نوع من أنواع الفروسية وقد عرفت ببلاد فارس منذ القرن الرابع قبل الميلاد. أما عن أول ظهور للعبة في بلاد الشام فقد كانت بعهد الخليفة هارون الرشيد. للمزيد المقريزي, السلوك، ج١، ص١٥– ١٦.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧. / المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٠. / العمري, مسالك الأبصار، ص٣٠.

٥ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧.

ويلاحظ في هذا الموكب ظهور العصائب السلطانية التي تتمثل في الرايات الصفر المنقوش عليها اسم السلطان إضافة إلى خيل السلطان، أما الموسيقى فكانت مصاحبة للموكب،والتي كانت تقرع لإيقاع الهيبة, وليس الطرب. كان السلطان محاطاً ببعض موظفيه الذين كانوا في خدمته مثل الركابدارية, والأوشقيان حيث كانت مهمتهم العناية بالخيل السلطاني الذي يمثل شعاراً من شعائر السلطنة في هذا الموكب، ويقدم لنا المقريزي والعمري وصفاً دقيقاً لموكب السلطان عند ركوبه إلى ميدان اللعب بالكرة ((وقد كانت عادته أن يركب للعب الكرة بالميدان برقبة, وهي تزركش ذهباً أطلساً أصفراً يعمل على رقبة الفرس من تحت أذنيه إلى نهاية العرف, ويكون قدامه اثنين من أوشاقيته [١] راكبين على حصانين أشهبين برقبتين, وكأنهما معدان لأن يركبهما, وعلى الوشاقين المذكورين قباوان أصفران من حرير بطرازين مزركش بالذهب وعلى رأسيهما قبعان مزركشان وغاشيته السرج محمولة أمامه وهي أديم مزركش بذهب ليحملها بعض الركابدارية قدامه وهو يمشي وسط الموكب، و يكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب بل يقرع بمهابة سامعه ومن خلفه الخبائب, وعلى رأسه العصائب السلطانية, وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه)) [٢]. وقد كان السلطان يركب للميدان للعب الكرة في أول النهار، في حين كان يركب للقبق [٣] كل يوم في وقت الظهر ويركب منه عند العشاء [٤].

وكان يصحب السلطان في ركوبه للعب من المماليك خاصتهم وعامتهم، وكانوا يركبون في أعداد غفيرة، ويلبسون أحسن زى وأجمل لباس, ويكونون في أكمل شكل وأبهى منظر [٥] وخيولهم في أكمل زينة مع معداتهم الحربية من سهام وأقواس, وكان من عادة السلطان عند ركوبه لميدان اللعب توزيع الخيول على جميع الأمراء، كما كان يفرق الذهب عليهم، وكانت الهدية من الخيول تختلف

---

١ – الأوشاقيان من استحداث السلطان الناصر محمد بن قلاوون. للمزيد المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٠.

٢ – العمري, مسالك الأبصار، ص٣٢/ المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠١.

٣ – كلمة قبق مشتقة من التركية، والقبق حسب تعريف المقريزي ((عبارة عن خشبة عالية جداً تنصب في براح من الأرض ويعمل أعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة في قسميها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها أي غرض هناك تمريناً على إحكام الرمي ويعبر عن هذا بالقبق في لغة الترك)).

٤ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص١١١.

٥ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص١١١.

أهميتها حسب رتب الأمراء وقربهم من السلطان. فقد كان يخصص للجميع خيولاً ((مسرجة ملجمة بلا كنابيش بغضة خفيفة)) [١].

كما كان السلطان يخلع على الجوكندار ((الذي كان يحمل جوكان السلطان عند لعب الأكرة أو الصولجان)) وكل من يكون في خدمته في هذا الموكب [٢].

وكان السلطان يكافئ ويخلع على كل أمير يصيب القبق، وكانت هذه الخلعة تليق بكل أمير، كل حسب مقامه ورتبته [٣]. وقد كان خروج السلطان والمماليك للعب أشبه بمهرجان لم يكن للعامة دور فيه سوى الفرجة فقط.

ويبين المقريزي بوضوح مظاهر الاحتفال وركوب السلطان عندما رسم لظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٧٥ هـ/ ١٣٥٦م يلعب القبق في عرض هائل بحضور عدد من رسل الروم ((*العساكر بكاملها في يوم واحد لبسوا أجمل العدد, وقصدوا السلطان بركوبهم في يوم واحد حتى لا يستعير أحد من أحد شيئاً*)) [٤].

ونلاحظ هنا سعي المماليك لإبراز تفوقهم العسكري, وخاصة دورهم في إبعاد وصد الأخطار الداهمة من المغول والصليبيين .

وبالتالي فإن اهتمام المماليك بهذا النوع من الألعاب حقق لهم أهدافاً متعددة في الوقت نفسه، وهي الترفيه, واللهو, والرياضة, والتدرب على فنون الحرب، وأيضاً إبراز أو استعراض القوة العسكرية ومهارة المماليك الحربية، باعتبار إقامة هذه الألعاب ترتكز على الاستعراض.

وفي آخر مرحلة من اللعب كانت العادة أن يختم اللعب بمد سماط، ويكون هذا السماط الذي تكون فيه جميع أنواع المأكولات والحلويات عندما يكون نصب القبق بمناسبة ختان ابن السلطان، ويحضر هذا السماط كل اللاعبين من المماليك [٥]. كما كان السلطان يجبر أحياناً الأمير المهزوم بأن يمد سماطاً على حسابه الخاص وباستدعاء كل المتبارين.

---

١ – العمري, مسالك الأبصار، ص٣١.

٢ – ابن أيبك الدوادار, الدر الفاخر، ج٩، ص٣٥٧.

٣ – النويري, المصدر السابق، ج٢٩، ص١٠٢./ ابن عبد الظاهر, المصدر السابق، ص٢٩٨./ المقريزي, السلوك، ج١، ص٦٢٦.

٤ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٦١١.

٥ – بيبرس المنصوري, التحفة الملوكية، ص١٣٤.

يظهر من خلال الألعاب مدى ثراء دولة المماليك [١]، لارتفاع تكلفة المعدات الحربية, ولباسهم الخاص, والخلع التي كان السلطان يمنحها لهم أثناء اللعب دون نسيان دورهم في إدخال لعبة القبق ذات الأصل التركي إلى بلاد الإسلام.

3-الإحتفال بخروج السلطان للصيد والنزهة:

كان لسلاطين المماليك اهتمام خاص بالصيد, فكانوا دائمي الخروج في حلقات ينظمها السلطان للترفيه؛إذ يعتبر الصيد وسيلة لهو باعتبارها تحفظ صحة المزاج، كما أنها رياضة وتمرين على الركض, والكر, والفر, وتعويد على الفروسية، وكذلك تمرين على الدقة في الرمي والضرب بالسيف وتمرين الخيول واختبار صبرها وقوتها.

ومن دلائل اهتمام سلاطين المماليك بالصيد أنهم كانوا يخرجون لسرحات الصيد في انتظام وفي أوقات معينة من السنة التي غالباً ما تكون في أيام الربيع كما يذكر العمري [٢] ((ومن عادة هذا السلطان الخروج إلى الصيد مرات في السنة[٣])) كما اعتاد سلاطين المماليك الخروج للصيد على إثر عودتهم من الحروب، كوسيلة للترفيه والتنزه؛ لأنه ((نزهة الملوك إلى الصيد)) [٤] فالسلطان المظفر قطز قتل على يدي الأمير بيبرس البندقداري عندما كان يتصيد بمنطقة القصير في طريق عودته للقاهرة على إثر الانتهاء من معركة عين جالوت عندما ((وثب عليه أقوام من الأمراء فقتلوه في الصيد)) [٥].

وقد اهتم بقية سلاطين المماليك بالخروج إلى الصيد بانتظام وكان لهذا الاهتمام درجات وذلك حسب درجة ميل السلطان للصيد, فبالغ بعضهم في الخروج إلى لصيد والتنزه مما أثار حفيظة الأمراء وانتقاداتهم في بعض الأحيان, فقد ((أخذ الأمراء على السلطان الملك الأشرف شعبان تمكينه الخدم

---

١ – المصدر السابق، ص١٣٤.

٢ – العمري, مسالك الأبصار، ص٣١.

٣ – ابن شاهين, المصدر السابق، ص١٢٧– ١٢٨.

٤ – بيبرس المنصوري, التحفة الملوكية، ص٤٥.

٥ – المصدر السابق، ص٤٥.

والنساء من التصرف في المملكة والتهتك في التنزه والصيد)) [1].

أما الخروج إلى الصيد فقد كان يقع في إطار حلقات للصيد بأمر من السلطان, ويضم عدداً كبيراً من الأمراء والأجناد الذين يصحبون السلطان , وقد كانوا أمهر الصيادين في صفوف الأمراء. أما عن تنظيم حلقات الصيد فقد كانت تقع في البرية في نواحي عدة من القاهرة وبلاد الشام.

أما عن هيئة السلطان في الخروج للصيد, فيبدو من خلال المصادر التاريخية أنه كان يخرج دون تكلف في إظهار شعائر السلطنة [2] من جتر أو غاشية, وبدون رقبة, ولا العصائب التي كانت تميز خروجه في موكب العيدين والميدان. وإنما ((كان الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه)) [3].

ولعل خروج السلطان للصيد بدون تكليف وبدون شعائر السلطنة، ربما يعود إلى طبيعة المناسبة وأكثر من ذلك ربما يعود ذلك إلى وقت خروج السلطان للصيد الذي كان يتأخر إلى الليل (فإذا جاء الليل حملت أمامه فوانيس كثيرة ومشاعل)) [4].

ويكون نزول السلطان في دهليز يعد بشكل خاص لإقامته أثناء فترة قيامه بالصيد، والدهليز هنا نوع من الخيمة السلطانية التي تصحب السلطان في الصيد وتعدُّ من شعائر السلطنة؛ لأنها خاصة بالسلطان ويكون مسير السلطان من قلعته ليلاً باتجاه الدهليز في المكان الذي اختير للصيد وقد حملت أمامه فوانيس كثيرة ومشاعل، ويدخل السلطان الدهليز في موكبه الذي تعود مصاحبته في رحلات الصيد في جو مهيب يعكس مكانة السلطان وهيبته وسط مماليكه.

ويقدم لنا كل من القلقشندي والمقريزي وصفاً دقيقاً ومتشابهاً لدهليز السلطان الذي يقام في سرحات الصيد ((وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها شقة مختصرة إلى لاجوق، وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخلها سور من خشب، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب ينصب

---

١ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٧١٣.

٢ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٠. /القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨.

٣ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٠.

٤ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٠./ القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨.

للمبيت فيه، وينصب بإزاء الشقة حمام بقدر من رصاص, وحوض على هيئة الحمامات بالمدن إلا أنه مختصر)) [١].

إن خروج السلطان للصيد كان يدوم لأكثر من يوم, ولم يكن السلاطين يقطعون رحلة الصيد المخصصة للتنزه واللهو، إلا إذا ورد خبر بوجود خطر داهم وخاصة خطر التتار الذي كان يهدد بلاد الشام، فكان السلطان يضطر لقطع رحلته والرجوع فوراً للقلعة في القاهرة والاستعداد للخروج للتصدي لأي خطر داهم [٢].

أما عن خصوصية موكب السلطان للصيد فقد تميز بخروج وركوب عدد كبير ((من الأمراء الأكابر, والأصاغر, والخواص, والغرباء, وخواص مماليكه)) [٣] باعتبار أن السلطان عند ركوبه للصيد لم يكن يتكلف في إظهار شعائر السلطنة التي كانت تميز لباسه الخاص. وقد كان عدد هؤلاء الأمراء والأجناد كبيراً ليبلغ في بعض الأحيان الآلاف.

ويسير في موكب السلطان هذا جمهور أمرائه ومماليكه,وكان شعارهم أن يكون في مقدمتهم مقدم المماليك، أما الأستدار، وكما عرفه العمري، فقد كانت إليه ((أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه, والحاشية, والغلمان, وهو الذي يمشي بطلب السلطان في السرحات والأسفار)) [٤].

وبالتالي كان هذا الموظف يترأس بقية الموظفين الذين كانوا يقومون بخدمة السلطان في موكبه وفي إقامته أثناء الصيد، من السلاحدارية, والطبارداريـة, والجاويشية [٥]، الذين كانوا يحفون بموكب السلطان أثناء مسيره نحو الدهليز بمكان تصيده، كما كانوا يقومون بخدمة السلطان وحراسته ليلاً في شقته الخاصة بالدهليز. كان هذا الموكب محكم التنظيم حيث إنه يشتمل على كل ما يحتاجه السلطان وأمرائه في سفرهم من ((الأطباء, والكحالين, والجرائحية , وأنواع الأدوية والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك)) [٦]. خاصة عندما كانت تقع بعض الحوادث أثناء الصيد وقد كان السلاطين

---

١ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨. / المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٠.

٢ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٦٠١. /ابن شداد, تاريخ الملك الظاهر، ص١٠٤.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨.

٤ – العمري, مسالك الأبصار، ص٥٧.

٥ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٢٠٠. / القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨.

٦ – André Clot, L'Empire des escalves, 1989, P. 108

والأمراء يصحبون في موكبهم أيضاً أنواع الطيور التي يصطادون بها، وكذلك الفهود المدربة التي يصطادون بها الوحوش والغزلان.

هذا وقد جرت العادة، أنه بعد أيام من إقامته في الصيد والتنزه وظفره بصيده، يرجع السلطان للقلعة في القاهرة مقر حكمه، فتكون عودته في موكب عظيم غير الذي خرج فيه أول مرة بقصد الصيد، وتكون هيئته في الركوب عند الرجوع للقاهرة ((على هيأة ركوبه لصلاة العيد بالمظلة وغيرها)) [١] من شعائر السلطنة. وربما يكون ذلك احتفالاً بظفره في الصيد؛لأن رجوعه إلى القاهرة لم يكن في وقت متأخر من الليل مثلما كان خروجه منها.

وقد كانت عادة السلطان عند ركوبه للصيد الإفاضة بالخلع والهبات على الأمراء والمماليك الذين شاركوا في حلقات الصيد [٢] ويكون ذلك أثناء الصيد أو على إثر الانتهاء منه.

وهذه الخلع التي كان يتحصل عليها الأمراء من السلطان أثناء الصيد كانت بمثابة المكافأة على مهارتهم في الصيد, وعلى فروسيتهم كما يمكن اعتبارها حركة من السلطان ترمز لاستمرار ولاء أمرائه له.

أما المنتفعين بالهبات والخلع السلطانية, فقد كانوا من صنف الأمراء، والموظفين الذين كانوا في خدمة السلطان أثناء الصيد. ((وربما أنعم بالخيول على ذوي السن من أكابر الأمراء عند الخروج إلى الصيد ونحوه)) [٣].

كانت الخلع تختلف أهميتها وقيمتها باختلاف رتب الأمراء ومكانتهم ((للكبير كبير وللصغير صغير، كل واحد على قدره)) [٤]. وعن طبيعة هذه الخلع، فقد كانت تتمثل في منح السلطان لأمرائه الأموال والذهب, وكذلك الخيول المسرجة والخلع والتشاريف, أما بالنسبة للتشاريف، فإنه كلما تمكن أمير من الحصول على شيء مما يصيده خلع عليه السلطان, فإذا تمكنوا من صيد الوحش والغزال

---

١ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨.

٢ – بيبرس المنصوري, التحفة الملوكية، ص١٣٣– ٢٣١.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٥٦.

٤ – العمري, مسالك الأبصار، ص٧٣.

والنعام فقد كان لكل ((من أحضر صيداً قباءً مسنجباً بما يناسب خلعه مثله للكبير كبير وللصغير صغير)) [١].

ويتضح من خلال ما ورد في العمري حول خلع التشاريف أن هذه الخلع كانت تتمثل أساساً في القباء, وهو نوع من الملابس المملوكية, يتمثل في قفطان ضيق الأكمام [٢] وتختلف قيمة هذا القباء بحسب رتب الأمراء.

وقد كانت تكلفة الصيد مرتفعة باعتبار قيمة هذه الخلع والهبات والهدايا التي كان يقدمها السلطان للأمراء مكافأة لهم على ما يحصلون عليه في صيدهم, وقد رأينا أن هذه الخلع كانت تتمثل أساساً في الخيول المسرجة ذات الكنابيش المذهبة، ترتفع قيمة هذه الخلع كلما كان الأمير في رتبة أعلى ولعل ذلك يدل على اهتمام المماليك بالخيل والفروسية.

وتشير بعض المصادر التاريخية ومنها العمري في كتاب مسالك الأبصار أن خروج السلطان إلى صيد كانت أكثر تكلفة خاصة إذا مر السلطان في صيده بإقطاع أمير كبير، فكان من عادته عندها أن يقدم له ((من الغنم, والأوز, والدجاج, وقصب السكر, والشعير ما تسمو همة مثله إليه فيقبلها منه وينعم عليه بحلقة كاملة وربما أمر لبعضهم بمبلغ من المال)) [٣].

وتكلفة خروج السلطان إلى الصيد تدل على مدى ثراء دولة المماليك وهذا ما ساعدهم في إنفاق الأموال الكثيرة على رحلات الصيد, كما كان السلطان ينعم على حملة الجوارح وعلى بقية الغلمان [٤] الذين كانوا في خدمته.

لم يمارس المماليك الصيد كوسيلة لهو أو نزهة فقط إنما مارسوها كرياضة وتدريب باعتبار تكوينهم العسكري, ووظيفتهم كجنود واستعدادهم الدائم لصد أي خطر طارئ.

---

١ – مسنجباً: تعني أنه كان من فرو خاص وثمين. وللمزيد العمري: مسالك الأبصار، ص٧٣. المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٨٨.

٢ – دهمان, المرجع السابق, ص١٢١.

٣ – العمري: مسالك الأبصار، ص٣١.

٤ – وهم الغلمان في الطشتخاناة (أي المهتمين بطعام السلطان) والشرابخاناة (المكلفين بالعناية بتوفير كافة أنواع الشراب الذي يحتاجه السلطان). والفراش خاناه (وهم المكلفين بتهيئة مكان نوم السلطان. للمزيد العمري: مسالك الأبصار، ص٧٣.

الفصل الثالث

الأعياد المصرية

أولاً- الأعياد الموروثة

١- وفاء النيل وكسر الخليج:

يعد نهر النيل أو كما يسمى أيضاً ((البحر)) نظراً لاتساعه واهب الحياة وشريانها بالنسبة لمصر والمصريين عامة؛ لأن هذا البلد يشكو من قلة وشح مياهه وأمطاره.

ونظراً لأهمية مكانة النيل فقد اهتم المصريون منذ العصور القديمة وحتى في العصور الوسطى بهذا النهر فرسموا له صورة طغى عليها الجانب الخيالي, والقدسي, والطريف أيضاً. فمنها قولهم إن نهر النيل نهر من أنهار الجنة وأنه ينبع من جبل القمر. كما وسموه بأنه نهر مؤمن [١]؛ لأنه يهب الحياة ويخصب الأرض عند فيضه. ونسبوا إليه العجائب والخوارق [٢].

---

١ - المقريزي, الخطط، ج١، ص٥٠- ٥١.

٢ - ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٥٧.

Kramers (J. H). S V, ALNil. El, T VIII, 1983, P42.

يرتبط النيل بعادات وتقاليد قديمة جداً ذات صبغة دينية ترجع إلى التاريخ اليوناني المسيحي, والتي تتمثل في إلقاء فتاة تسمى بعروس النيل كقربان, ويزعمون أن النيل لا يفيض إذا لم يفعلوا ذلك [١]. وقد أبطل المسلمون هذه العادة منذ فتح مصر.

وفي عصر سلاطين المماليك لم يتراجع الاهتمام بنهر النيل من حيث الاهتمام بفيضانه والاحتفال به كمناسبة لها أهميتها العظيمة، والاهتمام بحفر الخلجان والسدود. وقد ارتبط بنهر النيل عيد كان يعد من الاحتفالات العامة بمصر. وهو وفاء النيل وكسر الخليج.

آ- وفاء النيل:

كان للنيل موسم فيضان أو زيادة في كل عام، وتكون الزيادة في الصيف, ويكون أقصى ارتفاع له في شهر بؤونه من أشهر القبط.

أما الوفاء فمعناه بلوغ مياه نهر النيل الحد أو المنسوب (المقدار) الكافي لري الأراضي الزراعية ويسمى ذلك وفاء النيل وقد كان ذلك مناسبة هامة بالنسبة للسكان وخاصة منهم الفلاحين لأنه يبشر بخصوبة العام، وكذلك بالنسبة للسلطة؛ لأنه يعطيها فرصة الترفيع في الجباية واستخلاصها التي تمثل مصدر ثروة مصر، وقد ورد ذكر ذلك في قول السيوطي ((*إنه ليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجيء من خراج غلة زرعه ما يجيء من خرج غلة زرع النيل*)) [٢].

أما الحد أو المنسوب الكافي لري الأراضي الزراعية الذي به يكون وفاء النيل، فإنه بلغ في عصر سلاطين المماليك ستة عشر ذراعاً، وهو بالتالي يمثل أحسن مستوى للفيضان أو لزيادة مياه النيل. ويساوي الذراع ٥٠.٤ سنتمتراً [٣]. ويقول القلقشندي: إنه ((*إذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً ففيه تمام خراج السلطان وأخصب الناس*)) [٤].

وإذا زاد المستوى ارتفاع المياه على ستة عشر ذراعاً أي الوفاء, فإن ذلك يكون سبباً في ضرر الأرض واستبحارها [٥]. أما إذا نقص عن الستة عشر ذراعاً فتكون المجاعة. وكان مستوى ارتفاع النيل

---

١ – ابن ظهيرة, المصدر السابق، ص١٥٧.

٢ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٥٥.

٣ – André Clot, L'Empire des esclaves, P 329

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٦.

٥ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٦.

يقاس بواسطة المقياس الموضوع بجزيرة الروضة [١]. أما المقياس فيتمثل في ((عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه)) [٢]. وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً. وكل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسماً, أو كما تسميه المصادر بالأصابع، ما عدا الاثني عشر ذراعاً الأولى, فهي مفصلة على ثمان وعشرين إصبعاً لكل ذراع [٣] والأذرع الأولى هي السفلى.

ولمقياس النيل تاريخ طويل؛ لأنه جدّد عدّة مرات قبل الإسلام وبعده, وكان المشرف على مقياس النيل بجزيرة الروضة يسمى صاحب المقياس, ومهمته مراقبة ارتفاع منسوب مياه النيل في أيام الزيادة. ويظهر هنا اهتمام السلطة المملوكية بالنيل وزيادته من خلال الاهتمام بتعيين موظف خاص يهتم بمراقبة زيادة النيل يوماً بيوم، وإجمالاً كان المصريون يهتمون بتتبع مقدار زيادة النيل وفيضانه.

كان يؤخذ قاع النَّهر منذ اليوم السادس والعشرين من شهر بؤونه القبطي ، ويعتمد ذلك كأساس تحسب عليه الزيادة ومقارنة الزيادة بين السنة السابقة والسنة الحالية, وكان صاحب المقياس يقوم بقياس مقدار زيادة مياه النيل ((كل يوم وقت العصر)) [٤] ثم ينادي من الغد بتلك الزيادة بمقدار الأصابع دون ذكر أو تصريح لعدد الأذرع حتى لا يقع التشويش بين الناس إذا تأخر الفيضان عن موعده خوفاً من الجدب، وبالتالي خوفاً مما يمكن أن يقوم به الفلاحون من الاحتكار والتشويش. وللنداء على زيادة النيل أثر هام على عامة الناس والدولة معاً؛ لأن الجباية والخراج مرتبطان بوفاء النيل.

في حين كان صاحب المقياس يُطلع بشكل يومي، وبالتَّفصيل أهم موظفي الدولة وأعيانها على مقدار زيادة النيل ، وكان ((يكتب كل يوم رقاعاً لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام كأرباب الوظائف من الأمراء وقاضي القضاة من المذاهب الأربعة, وكاتب السر, وناظر الخاص... فيذكر زيادته في ذلك اليوم من الشهر العربي وموافقته من القبطي من الأصابع وما صار إليه من الأذرع)) [٥] ومقارنته بزيادة العام الماضي، ولا يقع إعلام عامة الناس بذلك إلا إذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً،

---

١ – ابن إياس, نزهة الأمم، ص٧٦.

٢ – ابن جبير, الرحلة، ص٢٩.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٣، ص٢٨٩./ ابن ظهيرة, الفضائل الباهرة، ص١٦٠.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٣، ٢٩٩.

٥ – المصدر السابق، ص٢٩٣.

فيقع حينئذ ((التصريح في المناداة في كل يوم بما زاد من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ويصير ذلك مشاعاً)) [١].

وفي يوم محدد يقاس قاع النهر ليكون أساساً تحسب عليه الزيادة، ويبدأ إعلام الناس بمقدار الزيادة منذ اليوم التالي، وفي عصر كل يوم يقيس المشرف على مقياس النيل في جزيرة الروضة مقدار زيادة مياه النيل لكي يعلنها المنادون في الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس. ويسمى هؤلاء المنادون (منادوا البحر) [٢] ويبدو دورهم مشابهاً لدور وسائل الإعلام.

ويبلغ النهر حدّ الوفاء عادة في شهر مسري من الشهور القبطية, ويكون هذا الحدث مناسبة هامة وعيداً تقام بمناسبته الاحتفالات الكبرى التي يشارك فيها العامة من الناس, وكذلك الدولة ممثلة في السلطان والأمراء والقضاة وأعيان الدولة؛ لأن فيضان النيل ووفاءه لا يهم العامة فقط. فإذا وفى النيل تهيأ الجميع للاحتفال بوفائه الذي يشترك جميع المصريين في الاحتفال به بمختلف دياناتهم وطوائفهم وطبقاتهم.

وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعاً (علامة الوفاء) يبدأ منادوا البحر بالتصريح بعدها بالأذرع وعلامة الوفاء أن يسدل الستار الخليفي على السباك الكبير في صدر مبنى القياس بجزيرة الروضة، فإذا شاهده الناس استبشروا خيراً [٣]. بحيث يخرج الناس لتهيئة المدينة لهذا الحدث فيوقدون القناديل والشموع ويحولون الليل إلى نهار.

ومثله مثل بقية الأعياد الدينية لا يخلو الاحتفال بهذا العيد من الإيقاع والأغاني, إلى جانب تناوب مجموعة من القراء تلاوة القرآن في تلك الليلة في دار المقياس [٤] وقد جرت العادة في عصر سلاطين المماليك أنه في صباح اليوم التالي من وفاء النيل يمدّ سماط حافل بأنواع اللحوم المشوية والفاكهة والحلوى التي كان يتخاطفها العامة من الناس [٥].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج قد اعتنى الفاطميون به قبل المماليك وعلى نفس النهج سار سلاطين دولة المماليك.

---

١ – المصدر السابق، ج٣، ص٢٩٣.

٢ – Dopp. L'Egypte au commencement du quanzieme siècle, 1975, P. 20.21

٣ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج٣، ص٢٩٧.

٤ – قاسم عبده قاسم, عصر سلاطين المماليك، ص١٢٥. / سعيد عاشور عبد الفتاح, المجتمع المصري، ص١٩٩.

٥ – المقريزي, السلوك، ج٢، ص٤٨٣.

ب- الاحتفال بكسر الخليج:

إثر الاحتفال بوفاء النيل يقع الاحتفال بكسر سدّ الخليج؛ وهو من أهم مظاهر الاحتفال بوفاء النيل.ويكون الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج على مرحلتين: فتكون الأولى بتخليق المقياس ثم كسر الخليج. وكان يقع الاحتفال بهما في نفس اليوم خلافاً لما كان في عهد الفاطميين حيث كان كسر الخليج بعد تخليق المقياس بثلاثة أيام [١].

أما بالنسبة لمظاهر الاحتفالات بكسر الخليج فتتمثل في اعتناء العامة من أهل مصر بإحياء هذا العيد بما يظهر فيه من أنواع اللهو والطرب، فقد ذكر القلقشندي أنه ((*إذا وفى ستة عشر ذراعاً... كسر خليج القاهرة، وهو يوم مشهود وموسم معدود ليس له نظير في الدنيا*)) [٢]يخرج فيه العامة للفرجة على موكب السلطان في هذا اليوم لكسر الخليج أما بالنسبة للاحتفالات الرسمية بكسر الخليج فقد كانت العادة أن يخرج السلطان أو من ينوبه بصحبة أعيان الدولة وأمرائها من قلعة الجبل لينزلوا باتجاه النهر حيث يركبون المراكب.

وقد كانت المراكب التي يخرج فيها السلطان مع أعيان الدولة صنفين وهما: الحراقة والذهبية [٣] وقد أعدت هذه المراكب خصيصاً لركوب السلطان في مثل هذه المواكب، وكانت تزين بالذهب والأعلام, وكان موكب السلطان يخرج بمصاحبة الطبول والألعاب النارية.

وتجمع المصادر التاريخية على أن هذا اليوم من الأيام المشهودة [٤] وفيه ((يركب الملك في خواص دولته الحراريق المزينة إلى المقياس)) [٥]. ومن ثم يتوجه هذا الموكب إلى القياس حيث تقام عملية تخليق المقياس بعد الفراغ من السماط الذي يمد بهذه المناسبة.

أما عملية تخليق المقياس فتتمثل في دهن عمود المقياس بعطر يتمثل في زعفران وقعت إذابته في ماء الورد ولا يقوم السلطان أو نائبه بعملية التخليق وإنما يوكل السلطان المسؤول عن

---

١ – القلقشندي,صبح الأعشى، ج٣، ص٥١٢.

٢ – المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٩– ٢٩٠.

٣ – الحراقة: كما ورد بمعجم الألفاظ التاريخية لمحمد أحمد دهمان ص٦٠ هي سفينة كبيرة حربية تحمل الأسلحة النارية أما الذهبية: فهي السفينة السلطانية.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٠.

٥ – السيوطي, حسن المحاضرة: ج٢، ص٣٤٩.

المقياس أو صاحب المقياس الذي يرمي بنفسه في فسقية الماء ليخلق عمود المقياس يشار إلى أن عملية التخليق مرتبطة بوفاء النيل, فإن لم يوف النيل فإنه يقع كسر الخليج دون تخليق المقياس [١]. ويخلع السلطان بهذه المناسبة على صاحب المقياس و ((على من له عادة بذلك)) [٢]. ثم يركب السلطان ومن معه الذهبية وحولها مراكب الأمراء المزينة, وقد امتلأت صفحة النيل بعشرات المراكب والقوارب التي تحمل المتفرجين السائرين وراء موكب السلطان، حتى يصل الجميع إلى فم الخليج أي موقع السد [٣].

كما يذكر بعض من زار مصر من الرحالة أن السلطان كان يشارك في كسر السد بأن يضرب بمعول خاص صنع من ذهب، ثم يركب بعد الانتهاء من ذلك ويعود إلى قلعته.

يختلف موكب السلطان في هذا اليوم، يوم كسر الخليج عن بقية المواكب الأخرى التي تظهر فيها شعائر السلطنة بوضوح مثل مواكب الأعياد الدينية ومواكب الألعاب, فقد كان السلطان يخرج في موكب كسر الخليج بدون مظلة ولا غاشية وغير ذلك من مظاهر الملك [٤].

كما جرت العادة في هذه المناسبة بكتابة البشائر بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة [٥]. وليس فقط داخل القاهرة، وهي في الأساس بشارة بوفاء النيل وأكثر منها استحقاق الخراج. فقد ((جرت العادة أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئن القلوب وهذه عادة قديمة)) [٦].

ومثلما كان فيضان النيل وزيادته سبباً في إرواء الأراضي وإعلان الأفراح والاحتفال بهذه المناسبة كان انحباسه سبباً في وقوع التشويش والاضطرابات, فإذا تأخر أو توقف عن الزيادة كان سبباً في تشويش العامة خوفاً من الجفاف والغلاء؛ لأن عدم زيادة النيل في موعده أو نقصانه عما هو مطلوب كانت نتيجته الحتمية ارتفاع الأسعار ووقوع المجاعة. وهو ما يدفع الناس للخروج من تلقاء أنفسهم أو بأمر من السلطان إلى المقياس بالروضة، أو إلى جامع عمرو بن العاص، أو الجامع

---

١ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٤٢٤.

٢ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٤٩.

٣ – قاسم عبده قاسم, عصر سلاطين المماليك، ص٥٣.

٤ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧.

٥ – القلقشندي,صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٠./ ابن عبد الظاهر, تشريق الأيام والعصور، ص٧٤.

٦ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٦٦.

الأزهر، أو إلى الصحراء [١] بصحبة القضاة للاستسقاء والدعاء, وتلاوة القرآن طلباً للوفاء. كما كان ينادي في الناس بالصوم لمدة ثلاثة أيام [٢]. مع الإكثار من الابتهال والدعاء. وهو ما يؤكده ابن إياس حيث يقول: إنه في هذه السنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م ((*وقع من الحوادث العظيمة أن النيل بلغت زيادته إلى أول توت خمسة عشر ذراعاً وثمانية عشر إصبعاً ثم هبط ولم يزد بعد ذلك، فشرقت البلاد ووقع الغلاء بمصر وأعماله،ا وانتهى سعر القمح إلى مئة وسبعين درهماً ، وكذلك الفول. وبلغ الرطل من اللحم إلى سبعة دراهم... فلما اشتد الأمر على الناس أكلوا القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل حتى قيل أبيع كل كلب بخمسة دراهم، وكل قط بثلاثة دراهم ولطف الله تعالى بأهل مصر ،فأرسل عليهم جراداً كثيراً فأكل الناس منه قاطبة وحصل به غاية النفع واستمرت هذه الشدة على الناس سنة كاملة*)) [٣].

كما كان أهل مصر يصلَون طلباً للهبوط أحياناً؛ لأن زيادة النيل فوق الستة عشر ذراعاً كانت يمكن أن يتسبب في تخريب الأراضي الزراعية ووقوع أضرار جسيمة، فكان السلطان وتبعاً لذلك يأمر في نفس اليوم ((بفتح السد بعد العصر خوفاً من قوة عزم الماء أن يقلب السد)) [٤].

ومن ذلك ما حدث سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٥٩م عندما زاد النيل زيادة كبيرة فوصل إلى حدود أربعة وعشرين ذراعاً، فخرج الناس للدعاء بالجوامع والمزارات يدعون لهبوط مياه النيل لما سيقع من الضرر على الناس ولما وقع من انقطاع ((الطرقات على المسافرين حتى امتنعوا عن السفر)) [٥].

كما نشير هنا أن أهل الذمة في مصر كانوا يشاركون المسلمين في خروجهم لصلاة الاستسقاء والدعاء والابتهال لله كي تجري مياه النيل، وهذا طبيعي؛ لأن النيل كان يعدُّ واهب الحياة لجميع أهل مصر بمختلف طوائفهم الدينية، والاحتفال بفيضان النيل كان من الأعياد الموروثة والضاربة في القدم والتي شارك الجميع في إحيائها.كان لأهل الذمة دور في بناء الجسور وصيانتها إما بإرادتهم أو بأمر من السلطان [٦].

---

١ – ابن حجر العسقلاني, إنباء الغمر، ص٨.

٢ – المصدر السابق، ص٧٦.

٣ – ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٣٩٠.

٤ – المصدر السابق، ج١، ص٤٤٨.

٥ – المصدر السابق، ج١، ص٥٦٩.

٦ – قاسم عبده قاسم, أهل الذمة، ص١٤٩.

وفي ختام دراستنا عن عيد وفاء النيل وكسر الخليج نشير إلى أنه كانت تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التي ميزت عصر سلاطين المماليك في احتفالاتهم بكل الأعياد والمناسبات الدينية أو العامة.

ج- موكب كسر الخليج عند وفاء النيل:

لا يحض إحياء عيد وفاء النيل وكسر الخليج العامة من أهل مصر المملوكية فحسب, وإنما كان السلطان يركب في هذا اليوم لفتح خليج السد ووفاء النيل ويعد خروجه في موكب عظيم لكسر الخليج من التقاليد الموروثة عن خلفاء الدولة الفاطمية [١] الذين اهتموا بالركوب لكسر الخليج ووفائه في مواكب ضخمة ومهيبة.

جرت العادة في مصر المملوكية أن يكون خروج السلطان في اليوم التالي لإعلان وفاء النيل؛ أي زيادته وبلوغه المستوى المطلوب لري الأراضي لكن ركوب سلاطين المماليك لهذا اليوم لم يكن منتظماً، ونفهم ذلك مما قاله القلقشندي: ((*وأعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج*)) [٢] وفي حالة عدم خروج السلطان يخرج من ينوب عنه [٣].

كما جرت العادة أن يكون خروج سلاطين المماليك لكسر الخليج من قلعة الجبل مقر ملكه في موكب عظيم، ويتميز موكب السلطان بهذه المناسبة بأنه موكب مزدوج، موكب بري يليه موكب بحري. وقد اعتاد سلاطين المماليك الركوب لهذا اليوم بصحبة الأمراء والمماليك، ((وفيه يركب الملك مع خواص دولته)) [٤].

ويظهر أن هذا الموكب كان مختصراً لاختصار شعائر السلطنة التي كان يظهر بها السلطان في بقية المواكب ((ولم تجر العادة بركوبه بمظلة ولا برقبة فرس ولا غاشية ولا في معنى ذلك مما تقدم ذكره في ركوب الميدان, والعيدين, بل يقتصر على السناجق والطبردارية والجاويشية)) [٥]. وربما يفسر تميز هذا الموكب بكونه موكباً مختصراً في ارتباطه لخصوصية المناسبة أو الاحتفال.

---

١ – ابن تغري بردي, النجوم الزاهرة، ج٤، ص٩٩– ١٠٠.

٢ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧.

٣ – سعيد عاشور عبد الفتاح, المجتمع المصري، ص٣١.

٤ – السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٤٩.

٥ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧.

ويكون انطلاق موكب السلطان من القلعة باتجاه المقياس بجزيرة الروضة [١]، ويكون مع ذلك خروج العامة في ازدحام كبير من كامل أنحاء القاهرة ومصر لمشاهدة خروج السلطان [٢] وهو يشق المدينة المزينة بشوارعها وأسواقها.

ولعل الاختلاف الثاني الذي نشاهده بخصوص هذا الموكب والاحتفال هو أن السماط الذي يمدّ بهذه المناسبة يكون موعده منذ وصول السلطان إلى المقياس بجزيرة الروضة حيث ((يمد هناك سماط يأكل منه من معه من الأمراء والمماليك)) [٣] وذلك على عكس بقية الاحتفالات والمواكب السلطانية التي كان يمدّ فيها السماط في آخر الاحتفال، ويكون سماط كسر الخليج متنوعاً فيه كل أنواع الطعام والفاكهة والحلوى. يأكل منه السلطان وخاصته ثم يفرق على العامة كصدقة،وذلك بعد فراغ صاحب المقياس من تخليق مقياس الروضة أي تعطيره بالزعفران المذاب في ماء الزهر.

وفي مرحلة أخرى وبعد تخليق المقياس يبدأ الموكب البحري للسلطان الذي ينتقل فيه السلطان من الخيل ليركب ((الذهبية)) وهي سفينة سلطانية عظمى أو ((حراقة عظمى)) بعبارة القلقشندي: وتكون حراريق الأمراء حوله، تطوف به وهي مزينة، وقد ملأت سطح نهر النيل في مشهد عظيم وأمامها عشرات المراكب والقوارب التي تحمل المتفرجين الذين يقومون بإطلاق الألعاب النارية, حتى يصل السلطان إلى فم الخليج وموقع السد, ليقوم السلطان عندها بقطع السد بمعول من الذهب كانت تحمله الطبرداري‌ة، ثم ينصرف بعدها باتجاه القلعة [٤] حيث القصر.

ويلاحظ بخصوص موكب السلطان حرص سلاطين المماليك على خلق نوع من الدَّهشة ترمي لإبهار العامة، وإيقاع الهيبة في نفوسهم ويقصد هنا هيبة الملك والسلطان.

وهذا ما ذكره ابن شاهين: ((*أما موكب كسر النيل ينزل السلطان إليه والجيش بخدمته وجميع الأعيان ويكون يوماً عظيماً يجتمع فيه أهل الديار المصري ويكسر السد وتجري المياه بالخلجان وتروي الأقاليم*)) [٥].

---

١ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧.

٢ – سعيد عاشور عبد الفتاح, المجتمع المصري، ص٣١.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧.

٤ – المصدر السابق ، ج٤، ص٤٨.

٥ – ابن شاهين, زبدة كشف الممالك، ص٨٧.

٢- عيد الشهيد:

رغم طابعه الديني وارتباطه بطائفة الأقباط المسيحيين, فإننا نصنفه ضمن الأعياد المصرية الموروثة؛ لأن إحيائه يقع في مصر منذ القدم؛ ولأن الاحتفال به لم يقتصر على طائفة الأقباط فحسب وإنما شارك في إحيائه جميع المصريين بمختلف طوائفهم الدينية وحتى الاجتماعية.

وعيد الشهيد في عصر سلاطين المماليك هو من أهم الأعياد المصرية التي اتسمت بمشاركة المسلمين في تلك الاحتفالات إلى جانب الأقباط, فاتخذ بذلك طابع الاحتفالات العامة. ويقع الاحتفال بهذا العيد السنوي في الثامن من شهر بشنش من الشهور القبطية, وعيد الشهيد من الأعياد التي تحمل طابعاً اجتماعياً و دينياً إلى جانب ارتباطه بنهر النيل؛ إذ يقوم هذا العيد في الأصل على خرافة يزعم الأقباط من خلالها أن: ((النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي النصارى فيه تابوتاً من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى)) [١]. وكانوا يحتفظون بهذا الإصبع الذي ينسب لأحد الحواريين في تابوت في كنيسته بناحية شبرا.

ويكون يوم الاحتفال بهذا العيد بمثابة المهرجان الكبير حيث يجتمع النصارى في هذا اليوم بناحية شبرا مكان إقامة الاحتفالات الدائم هناك [٢]. ويخرج كافة أهل مصر والقاهرة باختلاف دياناتهم وطبقاتهم الاجتماعية ((وينصبون الخيم على شط النيل)) [٣] للمشاركة في هذا الاحتفال الضخم بحيث يجتمع جمع كبير، وتقوم الألعاب على الخيل وغيرها بمصاحبة الغناء والإيقاعات ويسود جو من اللهو والسرور والترف.

وتصرف في هذه الاحتفالات أموال ضخمة وهي بشكل عام ميزة كل الاحتفالات والأعياد سواء منها الدينية أو العامة التي كانت تقام في عصر سلاطين المماليك نظراً للثراء الفاحش الذي كانت تتمتع به دولة المماليك.

ارتبط الاحتفال بعيد الشهيد بمظاهر الفساد والانحلال الأخلاقي. هذا إلى جانب الفوضى الاجتماعية التي تتمثل في اندلاع الفتن التي تصل إلى حد القتل وإزهاق الأرواح خاصة وأن الخمر كانت حاضرة؛ إذ يذكر المقريزي: إنه كان يباع من الخمر في ذلك اليوم ((بما ينيف على مائة ألف

---

١ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٦٨– ٦٩. / ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد): نزهة الأمم ، القاهرة, ١٩٨٨, ص١١٢.

٢ – المقريزي,الخطط، ج١، ص٦٨– ٦٩. / ابن إياس, نزهة الأمم، ص١١٢.

٣ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٦٩.

درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهباً)) [١]. وهذه الكميات الكبرى من الخمور التي تباع وتستهلك في هذا اليوم تساهم في مظاهر الفساد الأخلاقي والفوضى التي تميز الاحتفالات بهذا العيد.

في سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠١ م قام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والذي كان آنذاك أستاذ دار السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإبطال عيد الشهيد. غير أن قرار الإبطال لم يجد له ما يسوغه ، فهل كان ذلك بسبب ما كان يصحب هذه الاحتفالات بعيد الشهيد من فساد وانحلال أخلاقي وفوضى، أم هو مظهر من مظاهر حملات الاضطهاد ضد أهل الذمة في مصر.

وعلى إثر صدور أمر منع هذا العيد حاول كل من الأقباط والمسلمين[٢] جاهدين إلغاء هذا القرار مرات عدة. غير أن الأمير بيبرس الجاشنكير كما يذكره المقريزي كان يقول علناً: ((*لأن لا يرمي إصبع في النيل ولا يعمل له عيد*)) [٣].

وقد حاول الأقباط جاهدين التصدي لهذا الأمر بمحاولة إقناع ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالتراجع عن قراره, فأغروه بالأموال زاعمين أن إبطال هذا العيد خسارة؛ لأنه مصدر الوفاء لخراج الدولة لكنهم لم ينجحوا في ذلك ،وقاموا مرة أخرى بالضغط على الأمير ركن الدين بيبرس عندما وسّطوا عنهم أحد الأقباط المقربين منه كان يعمل في الكتابة لكن دون جدوى.

بَطُلَ إحياء عيد الشهيد في مصر سنة ٧٠٢ هـ/ ١٣٠١ م وتواصل قرار منعه إلى حدود ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧ م دون انقطاع.

وفي سنة ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧ م في عهد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ألغي أمر إبطال عيد الشهيد. ويذكر كل من المقريزي وابن إياس أن السبب في إعادة الاحتفال بهذا العيد ((غريب)) ويتمثل في أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر بإعادة عيد الشهيد وإبطال قرار إلغائه إرضاءً لاثنين من أمرائه كانا طلبا منه الخروج للصيد، ولصرفهما عن هذا الأمر قام بإلغاء قرار منع عيد الشهيد ((لشدة غرامه بهما وتهتكه في محبتهما... وأراد صرفهما عن السفر, فقال لهما :نحن نعيد عمل الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد)) [٤].

---

١ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٦٩.

٢ – المسالمة: هم فئة من المسلمين وأهل الذمة، أشهروا إسلامهم لكنهم ظلوا على ولائهم لدينهم القديم وكانوا بالتالي مصدر شك حول مدى إخلاصهم للإسلام. قاسم عبده قاسم, أهل الذمة في مصر، ص١٧١.

٣ – المقريزي,الخطط، ج١، ص٦٩.

٤ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٦٩.

واستمر عمل هذا العيد سنوياً إلى حدود ٧٥٥ هـ/ ١٣٥٤م ليقع إبطاله للمرة الثانية، لكن إبطاله في هذه المرة كان نهائياً في عهد السلطان الملك الصالح صلاح الدين محمد بن قلاوون (٧٥٢- ٧٥٥ هـ/ ١٣٥١- ١٣٥٤ م).

لكن هذه المرة لم يصدر الأمر عن السلطان بسبب مظاهر الفساد التي كانت تصاحب الاحتفالات بهذا العيد، بل كان في إطار ظرفية تميزت بحملة واسعة ضد أهل الذمة وبعد تدخل العامة من المسلمين. وكان سببها تحرك المسلمين لما عاينوا ضخامة أوقاف الكنائس والأديرة القبطية التي بلغت آنذاك جملتها ((خمسة وعشرين ألف فدان في أنحاء البلاد)) [١]. وعلى إثر هذه الحملة صادرت السلطة أوقاف الكنائس والأديرة، ووزعت على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم [٣].

وفي إطار حملة المصادرة هذه وقع هدم كنيسة النصارى بناحية شبرا في ضواحي القاهرة. وهي الكنيسة التي كان يوجد بها التابوت الذي به إصبع الشهيد كما يزعمون. وقاموا بإحراق التابوت الذي يوجد فيه الإصبع المزعوم بحضور السلطان الملك صلاح الدين محمد بن قلاوون ومنذ ذلك التاريخ بَطُلَ عيد الشهيد في مصر تماماً على يد سلاطين المماليك.

ثانياً- الأعياد الفارسية:

١- عيد النوروز:

النوروز وتلفظ أيضاً النيروز هو عيد رأس السنة القبطية، وموعده أول يوم من شهر توت من شهور السنة القبطية الشمسية. فجميع المصريين كانوا على اختلاف دياناتهم يحتفلون بهذا العيد احتفالاً عظيماً [٢].

ويظهر أن لفظة نيروز لفظة فارسية معربة، ويبدو أن القبط قد أخذوا عنهم هذا الموسم في أول سنتهم فجعلوه عيداً [٣] وسموه نوروزا. ويمكن أن نؤكد هذا الافتراض الذي يطرحه القلقشندي بما أورده.

---

١ - المقريزي, الخطط، ج١، ص٦٩.

٢ - Levy (R). SV. Nawruz, El. TVII, 1996, P 1049 / البيروني (أبو الريحان): الآثار الباقية, طبعة ادوارد سخاو, ١٨٧٨, ص ٢١٦./ حسن(ابراهيم حسن): تاريخ الاسلام, القاهرة, ١٩٨٩, ج٢, ص ٤٣٧.

٣ - القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٩.

يذكر المقريزي في خططه نقلاً عن ابن عساكر أن أول من أحدث النوروز أحد ملوك الفرس ويسمى ((جمرشيد)) الذي عمل اكتمال ملكه وقضائه على أعدائه على اتخاذ ذلك اليوم عيداً وأسماه نوروزاً، وهي كلمة فارسية تعني ((اليوم الجديد)) [١].

والنوروز عند الفرس يوم الاعتدال الربيعي وهو نفس ما ذكره ابن إياس عن الأصفهاني في أن النوروز أصله فارسي [٢] ثم أخذه الأقباط عنهم، وأن أحد ملك القبط في القديم ويسمى منادش بن منقاوش هو أول من عمل النوروز بمصر, وقد اختار ملوك الأقباط أن يجعلوا أول السنة أول الخريف, وأن يكون ذلك عيداً سموه النوروز، واختيار أول الخريف مستهل السنة؛ لأن الخريف كان موعد استكمال النيل لارتباط هذا الاحتفال بنهر النيل.

يقدم كل من المقريزي وابن إياس روايات أخرى يرجعان أصل هذا العيد إلى أصول أخرى, فثمة من يرجع أصل هذا العيد إلى سليمان بن داود، وأن هذا العيد يحتفل به كذكرى لليوم ((الذي رجع إليه فيه خاتمه)) [٣] الذي ((شفي فيه أيوب عليه السلام)) [٤] فجعل ذلك اليوم عيداً.

ورغم هذه الاختلافات في المصادر التاريخية حول أصل الاحتفال بعيد النوروز, فإنه بإمكاننا ترجيح رواية القلقشندي، والرواية التي يذكرها المقريزي في أن النوروز يعود في أصوله التاريخية إلى الفرس. وقد وصف ابن الحاج المفاسد التي تقع أثناء الاحتفال بهذا العيد بالخصال الفرعونية [٥] وهو ما يمكن أن يؤكد أن هذا العيد كان يحتفل به قدماء مصر.

إن هذا العيد شأنه شأن عيد الشهيد شارك جميع المصريين في إحيائه على اختلاف دياناتهم وطبقاتهم الاجتماعية. وقد تواصل الاحتفال به في عصر سلاطين المماليك وكانت سمتة آنذاك أنه كان عيداً عاماً لا يهتم به الأقباط فحسب بل يشارك فيه المسلمون أيضاً، فكان بذلك احتفالاً عاماً ومشهوداً. حيث يقول ابن الحاج: إنه من المواسم التي اعتاد المسلمون على إحيائه ((*وهم يعلمون أنها مواسم مختصة بأهل الكتاب*)) [٦].

---

١ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٧– ٢٦٨.

٢ – ابن إياس, نزهة الأمم، ص٢٤١– ٢٤٣.

٣ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٨. / ابن إياس, نزهة الأمم، ص٢٤١.

٤ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٨.

٥ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٤٩.

٦ – ابن الحاج, المدخل، ج٢، ص٤٦.

آ- عادات النوروز:

تمثلت مظاهر الاحتفال بيوم النوروز في الدولة المملوكية بيوم عطلة عامة حيث كانت تغلق فيه الأسواق [١] وتتعطل الحركة في المدينة وتغلق المدارس, وتتعطل الدروس في هذا اليوم ((بل تجد بعض المدارس مغلقة، فيلعبون فيها حتى لو جاء المدرس...)) [٢].

وتنوعت الاحتفالات بهذا اليوم داخل المنازل وخارجها أي بالأسواق والأزقة. أما في المنازل فكانوا يستعدون لهذه المناسبة بإعداد أنواع معينة من الأطعمة والحلويات مثل ((الزلابيا والهريسة)) والتي يقع إعدادها ليلة النوروز وهي من العادات التي حرص المسلمون على المحافظة عليها وتحقيقها ((تشبهاً بأهل الكتاب)) [٣].

وفي يوم النوروز يجتمع الأقارب والأصحاب في أحد المنازل للاحتفال بهذه المناسبة بصفة جماعية ((كأنه عيد بينهم)) [٤] لتناول أنواع من الأطعمة كالبلح والبطيخ الأخضر... اقتداءً بالأقباط. أما في الأسواق والشوارع والأزقة, فيجتمع عامة الناس في احتفالات شبيهة بالمهرجان, فيختارون أحداً منهم يغيرون له ملامحه ويسمى ((أمير النوروز)). وفي ابن الحاج وصف دقيق لما يفعلونه فيقول ((*فيغيرون وجهه بجير أو دقيق ثم يجعلون له لحية من فروة أو غيرها ويلبسونه ثوباً أحمر أو أصفر ليشهروه بذلك... ثم يجعلون على رأسه طرطوراً طويلاً ثم يركبونه على حمار ويجعلون حوله الجريد الأخضر وشماريخ البلح... فيطوفون به أزقة البلد وشوارعها على الأبواب وفي الأسواق على أكثر الدكاكين والبيوت فيأخذون منهم ما يأخذون على شبه الظلم والغضب والتعسف ومن امتنع عن ذلك آذوه بصب الماء عليه... فيهينونه بالضرب والكلام الفاحش*)) [٥]. ولا يخلو هذا الاحتفال من التراش

---

١ – ابن إياس, نزهة الأمم، ص٢٤٣./ المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٩.

٢ – ابن الحاج, المدخل، ج٢، ص٤٩.

٣ – المصدر السابق، ج٢، ص٤٨.

٤ – المصدر السابق، ج٢، ص٤٩.

٥ – ابن الحاج, المدخل، ج٢، ص٥٢– ٥٣.

بالماء، وإيقاد النيران وهي من العادات التي كان يمارسها الفرس منذ القديم عند الاحتفال بالنيروز, إضافة إلى التصافع بالجلود، أو كما يقول المقريزي ((*وما زال النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود والتراجم بالبيض وغيرها*)) [١].

ولم تقتصر هذه الأفعال على العامة وإنما كان بعض الأعيان يقومون بذلك في بساتينهم [٢] بعيداً عن أعين العامة, ولم يكن يوم النوروز يوم عطلة عن الأنشطة التجارية والتعليمية والضوابط الأخلاقية، بل أيضاً عطلة قانونية، فقد كانت ترتكب في هذا اليوم أنواع من الحوادث والفتن التي كانت تصل إلى حدّ القتل دون تدخل السلطة حتى أن ((الوالي لا يحكم في ذلك اليوم حتى لمن زهقت نفسه)) [٣].

كما يذكر المقريزي أنه ((*فلما انقضى يوم نوروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر*)) [٤] دون أن يتدخل الوالي أو يحكم لأحد من المتضررين في ذلك اليوم، وكان بذلك كل شيء مباح حتى الأنفس. لذلك فإن كل من كان له عدو يستغل ذلك اليوم لينفذ مأربه أو ثأره على جهة اللهو ((فيذهب دمه هدراً ولا يؤخذ له ثأر)) [٥]. إن هذه الاحتفالات تجاوزت اللهو والسرور لتتعداه إلى انحلال وفساد أخلاقي.

ب- موقف المماليك من النوروز:

لقد تعددت محاولات إبطال العادات المستهجنة التي كانت ترافق الاحتفالات بهذا العيد من تراش بالمياه النجسة و إيقاد للنيران, وكانت هذه المحاولات قد بدأت مع الخلفاء الفاطميين لكن دون جدوى [٦] أما في دولة المماليك فلم نجد في المصادر ذكر لأي تدخل للدولة سواء بالسلب أو الإيجاب إلا بداية سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠م عندما أمر الأمير برقوق قبل أن يصبح سلطاناً بكف لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة بالضرب وبمصادرة أمواله.

---

١ – المقريزي,الخطط، ج١، ص٢٦٩.

٢ – المقريزي, المصدر السابق، ج١، ص٤٩.

٣ – ابن الحاج, المدخل، ج٢، ص٤٩.

٤ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٩.

٥ – المصدر السابق، ج٢، ص٤٩.

٦ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٨.

ويتضح أن هذا القرار بمنع هذا العيد كان في بدايته جدياً فقد وقع القبض على أربعة من المخالفين عوقبوا وشهروا ليكونوا عبرة [١]. لكن العيد لم يبطل ولكن اختفت بذلك الكثير من العادات التي كانت ترافق احتفالات النوروز مثل التراجم بالبيض [٢]. لكن يبدو أن قرار الأمير برقوق لم يكن حاسماً فقد ذكر القلقشندي أنه تواصل الاحتفال بعيد النوروز، غير أنه وإلى حدود سنة ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م اقتصر الاحتفال على رش المياه والتصافع وترك الاحتشام ((دون إيقاد النيران ودون ما يفعله النصراني في بيته وخاصته)) [٣].

ولعل تواصل الاحتفال بعيد النوروز يعود إلى تجذر هذا العيد لدى أهل مصر الذين كانوا يحتفلون بهذا العيد منذ القديم على اختلاف انتماءاتهم الدينية والاجتماعية ومدى تعلقهم به. كما يمكن أن نرجع ذلك أيضاً إلى اهتمام بعض سلاطين المماليك باللهو واللعب.

ويتضح أنه لم يبطل إحياء النوروز إلا مع دولة سلاطين المماليك الجراكسة، والتي تمثل فترة تراجع دولة المماليك في مصر مقارنة بدولة سلاطين المماليك البحرية التي تميزت بالازدهار والثراء المادي والحضاري، وبالتالي ارتبط إحياء النوروز بثراء الدولة وترفها وهو ما نفهمه من قول المقريزي عن عهد دولة المماليك الجراكسة من أنه ((لم يبق للناس من الرفه ما يوجب لهم عمله)) [٤] ويقصد هنا طبعاً إحياء عيد النوروز.

2- عيد المهرجان:

عيد من الأعياد الفارسية الأصل، وهو من أكبر الأعياد التي كان يحتفل بها الأقباط قبل دخول الإسلام، غير أنه تواصل الاحتفال بهذا العيد حتى بعد دخول الإسلام.

أما موعد الاحتفال بعيد المهرجان, فيكون سنوياً في منتصف السنة القبطية الشمسية ((في وسط زمان الخريف)) [٥] وتحديداً في التاسع من شهر أبيب من شهور الأقباط، ويكون بذلك بينه وبين النوروز مئة وسبع وستون يوماً، وتتميز احتفالات المهرجان بالخروج إلى المنتزهات ترويحاً عن النفس

---

١ – المقريزي, السلوك، ج٣، قسم ١، ص٣٩٤.

٢ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٩.

٣ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٩– ٤٣٠. / البيروني, المصدر السابق, ص ٢٢٢.

٤ – المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٩.

٥ – القلقشندي, صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٠.

وما يصاحب ذلك من مظاهر اللهو والسرور والرقص والغناء مثله مثل النوروز. وقد اعتاد الناس من أقباط ومسلمين تبادل الهدايا فيما بينهم, وتواصل الاحتفال بعيد المهرجان طيلة ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر مثلما يسمى اليوم السادس من الاحتفال بعيد النوروز، النوروز الأكبر [١].

وقد ظلت مثل هذه الأعياد الفارسية الأصل محل اهتمام المماليك الذين واصلوا إحياءها وربما شجع على ذلك جنوح بعض سلاطين المماليك إلى اللهو والسرور والتفرج على أصحاب الملاهي، إضافة إلى ما كانوا يتقبلونه من هدايا [٢] من الأقباط الذين كانوا يعملون كموظفين في الإدارة المملوكية.

ولكن يظهر أن عيد النيروز كان من حيث تقاليد الاحتفال به متفوقاً على عيد المهرجان على أساس أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا معلومات إضافية عن إحياء عيد المهرجان بل تركز جلّ المصادر على إحياء عيد النوروز وما ارتبط به من عادات وطقوس.

ثالثاً- الحفلات الخاصة للمصريين:

أما الحفلات التي اهتم الناس بإحيائها في عصر المماليك فيمكن تقسيمها قسمين: حفلات خاصة أو عائلية، وحفلات عامة أو شعبية. وأول أنواع الحفلات المنزلية ما يتعلق بأفراح الزواج. عمد كثير من المصريين إلى المبالغة في ذلك النوع من الحفلات تقليداً لما اعتاد أن يفعله سلاطين المماليك في أفراحهم.

وبدأ الزواج في ذلك العصر بالخاطبة التي يقصدها راغب الزواج؛ لأنها ((تعرف كل مليحة بمصر والقاهرة)) ذلك أنها تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء، وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على أسرار الحريم, فتستطيع أن تأتي للعريس بالعروس التي تناسبه [٣] ولم يكن للفتاة رأي في اختيار شريك حياتها، بل ظل الرأي النهائي لوالدها وربما شاركته أمها. فإذا تمت

---

١ – المصدر السابق، ج٢، ص٤٢٠.

٢ – ابن الحاج, المصدر السابق ج٢، ص٣٣٤.

٣ – الموصلي (ابن دانيال): طيف الخيال، دار الكتب المصرية, القاهرة, دت, ص٤٩.

الخطوبة جاء دور عقد القران في المسجد، على أن ينصرف أهل العريس بعد كتابة العقد في موكب كبير أو صغير حسب الحال. وبعد عقد القران يأتي إعداد المهر ونقله إلى منزل العريس.

وجرت العادة أن يكون في ذلك المهر ثلاث دكك: إحداها من فضة، والثانية من نحاس أبيض، والثالثة من نحاس أصفر. وفي ليلة الزفاف تقام وليمتان كبيرتان إحداهما للنساء في بيت العروس، والأخرى للرجال في بيت العريس وبعد الطعام يخرج العريس في موكب يحف به الأهل والأحباب قاصداً بيت عروسه حيث يبدأ حفل يختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء. وكثيراً ما يتباهى المدعوون والمدعوات بتقديم النقوط إلى المغنيات، وتقديم الهدايا من الشمع والخراف والسكر والأوز وغير ذلك من أصحاب العريس. ومن الواضح أن هذه الهدايا كانت تعد ديناً لا بدّ من تقديمه على أن يرد في المناسبات المماثلة. وفي نهاية الحفل تنحني العروس أمام العريس لتقبل يده وتقدم له سيفاً تمسكه من طرفه، فيتناوله العريس من مقبضه.

ومن الحفلات العائلية حفلات الولادة، فإذا وضعت الأم مولودها أقبلت عليها النساء يزغردن، ويرقصن مع ضرب الدفوف، في حين تدوي المزامير والأبواق على أبواب المنزل. ويتضاعف الفرح إذا كان المولود ذكراً؛ إذ يتعين على والده في هذه الحالة أن يقيم وليمة ((مولود ذكر)) يدعو إليها الأهل والأحباب ويكثر فيها من عمل أصناف الطعام والحلوى[١]. أما يوم السبوع فيكون الاحتفال به عظيماً إذ تلبس أم المولود الثياب الجديدة وتطوف بأنحاء الدار في موكب تحيط به الشموع، والقابلة أمامها تحمل المولود مع إطلاق البخور وإلقاء الملح وبعض الحبوب يميناً ويساراً ((لمنع العين والجان)).

احتفلت العائلات كذلك بختان الطفل، فكانت تقيم حفلاً تدعو إليه الأهل والأصدقاء الذين يحرصون على تقديم النقوط لأهل الطفل على أن توضع هذه النقوط ((في الطشت الذي يطهر فيه الولد)) [٢] ، وإذا سافر أحد أفراد الأسرة إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، فلا بدّ من توديعه عند السفر ثم استقباله بعد عودته في حفل تنشد فيه الأناشيد التي يطلق عليها اسم ((التحنين)) ؛لأنها تشوق الناس إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ،وفي جميع هذه الأفراح كان لا بدّ من الحصول

---

١ – ابن حجر, إنباء الغمر، ج١، ص٥٦٠.

٢ - المصدر السابق، ج٢، ص٣٧٦/ المقريزي, السلوك، ج٤، ص٤٦٦.

على إذن ضامنة الأغاني بعد دفع الرسوم المقررة لها ((*ومن عمل فرحاً بأغان أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف*)) (١).

الفصل الرابع

أماكن الاحتفالات

١ - المقريزي, المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٠٦.

أولاً- أماكن الاحتفالات:

تعد مدينة القاهرة من أهم المدن المملوكية باعتبارها عاصمة الملك، وعاصمة العالم الإسلامي خاصة بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد التي أصبحت تحت سيطرة المغول. وقد اتسعت مدينة القاهرة باتساع الأسواق والمنازل ودور الأمراء، وبناء الجوامع والمدارس, كما قام السلاطين ببناء القناطر والجسور لربط المدينة بغيرها من المدن. حتى إن ابن بطوطة دوّن إعجابه بمدينة القاهرة واعتبرها أم البلاد ووصفها بالمتناهية في كثرة العمارة [1].

كما اشتهرت مدن عديدة تابعة للمماليك وأهمها الإسكندرية والفسطاط.ومن المدن التي اشتهرت دمشق حيث عدَّت قاعدة المُلك الثانية بعد القاهرة،كما اشتهرت مدن أخرى ببلاد الشام يخرج السلطان المملوكي إليها للصيد والنزهة.

أما أهم الأماكن التي استخدمها المماليك لتكون مقراً لاحتفالاتهم الخاصة والعامة.

١- قلعة الجبل وملحقاتها:

قلعة محصنة تقع على جبل المقطم [2]. وقد اختار سلاطين دولة المماليك البحرية هذا المكان كقاعدة لحكمهم، ويقدم لنا العمري وصفاً لموقع هذه القلعة ((فأما قلعة الجبل فهي على نشز عال يسمى الجبل الأحمر من تقاطيع جبل المقطم بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب... وهي مبنية على ذلك النشز، ترتفع في موضع منه وتنخفض في آخر، يدور بها

---

١ - ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٤٨٥/ ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١٩٠/ ابن بطوطة, المصدر السابق، ص٥٥.

٢ - العمري, المصدر السابق، ص٧٩. كان هذا المكان يستخدمه الأيوبيين ليتمكنوا من خلالها الإشراف على القاهرة والفسطاط.

سور حجر بأبراج وبدنات إلى أن ينتهي إلى القصر الأبلق الناصري المستجدّ بناؤه، ثم من هناك تتصل بدور الملك وليست على أوضاع أبراج القلاع)) [١].

تحوي القلعة قصوراً لإقامة السلطان، وتحتوي على عدة قاعات ودور الحريم والجواري. كما يوجد في محيط القلعة إسطبل السلطان المخصص للخيول السلطانية وميدان القلعة الكبير وكان لكل ساحة وظيفتها.

كان الإيوان يمثل قاعة العرش وداراً للعدل أو كما يقول العمري: ((المعدّ لجلوس السلطان أيام المواكب وإقامة دار العدل)) [٢].

يقام بهذا الإيوان الاحتفال بتولية السلطان الجديد بعد أداء اليمين ومدّ السماط وتوزيع الخلع والتشاريف على كبار الأمراء وأرباب الوظائف.

وقد كان لجامع القلعة ارتباط بموكب السلطان وتحديداً ركوب السلطان إلى هذا الجامع لأداء صلاة الجمعة، وهذا يعني أن بناء هذا الجامع في القلعة كان مخصصاً لهذه المناسبة الدينية, ولم تكن له وظيفة أخرى كالتدريس مثل المدرسة أو الخوانق خصصت مقصورة بهذا المسجد ليقيم فيها السلطان صلاة الجمعة في حين يصلي بقية الأمراء خارجها، ويصطفون عن يمين ويسار المقصورة من الخارج في ترتيب يعكس هرمية السلطة وتراتبية الأمراء, وقربهم من السلطان ومما يؤكد أن جامع القلعة كان مخصصاً فقط لركوب السلطان وأداء صلاة الجمعة, إن صلاة العيدين كانت تقام بميدان القلعة ولم يتحول سلاطين المماليك عن ذلك إلا مع السلطان برقوق الذي أصبح يركب لصلاة العيدين بجامع القلعة وذلك لأسباب أمنية [٣].

ويعد ميدان القلعة [٤] من أكثر الأماكن التي استخدمها السلاطين المماليك للقيام باحتفالاتهم ويصف العمري هذا الميدان بأنه ميدان مموج بالنخيل الأخضر, يفصل بين الإسطبلات وبين سوق

---

١ – العمري, المصدر السابق، ص٨٠.

٢ – العمري, المصدر السابق، ص٨١/ ابن إياس, بدائع الزهور، ج١، ص٤٨٥.

٣ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١١١/ السيد (أيمن فؤاد): التطور العمراني لمدينة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٠، ص١٦.

٤ – ميدان القلعة يقع تحت القلعة على مقربة من سوق الخيل.

الخيل، وكان الميدان متسعاً ((فسيح المدى يسافر النظر في أرجائه... وبهذا الميدان أنواع من الوحوش المستحسنة للنظر وتربط به خواص الخيول للتفسح)) [١].

وكان سلاطين المماليك البحرية يركبون لهذا الميدان في العيدين (عيدا الفطر والأضحى) لأداء صلاة العيدين بحضور خطيب القلعة، يليه مدّ سماط العيد وتوزيع الخلع والتشاريف [٢] في الإيوان الكبير وكان السلطان يركب للميدان في موكب عظيم بشعائر السلطنة.

كما كان الميدان مخصصاً للألعاب المملوكية مثل القبق، وسباق الخيل، كما حمل الميدان اسم السلطان الذي أنشأه مثل الميدان الظاهري والناصري... كما كان سلاطين المماليك يستعرضون أجنادهم من المماليك بالميدان في حالة السلم [٣].

وكان الهدف منه التأكد على امتلاك كل فارس لآلاته الحربية، واختبار استعدادهم لأي خطر قادم باعتبار أن بلاد الإسلام كان يتهددها الخطرين الصليبي والمغولي. وكان ركوب السلطان ومماليكه على ميدان لممارسة الألعاب الرياضية مناسبة للهو والترفيه وأيضاً للتمرين واكتساب الفنون الحربية وهو ما يجعلنا نعتبر أن العوامل السياسية كانت من العوامل المساعدة في تميز الألعاب والاحتفالات السلطانية والمملوكية في عهد سلاطين المماليك.

يوجد خارج القلعة ميادين عديدة أغلبها من إنشاء كل من السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويعود ذلك إلى طول مدة حكمهما. وهما بالتالي من أبرز السلاطين الذين رسموا هذه الصورة الزاهية وحققوا قوة دولة المماليك.

أما عن أول ميدان شيده سلاطين المماليك فهو ((الميدان الظاهري)) نسبة للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري كان هذا الميدان الذي يشرف على النيل، وقد خصصه للعب الكرة كما أنشأ السلطان الظاهر بيبرس ميدان القبق خارج القاهرة وميدان العيد.

٢- الأسواق:

---

١ - العمري, المصدر السابق، ص٨٣.

٢ - المصدر السابق، ص٨٣/ Doris Behrems Abouseif, The citadel of cairo, P65

٣ - المقريزي, السلوك، ج١، ص٦٢٦.

أقيمت هذه الأعياد والاحتفالات في المدينة وفي أماكن معينة وثابتة, وارتبطت كل مناسبة بمكان معين من المدينة مثل الزوايا التي كان يؤمها العامة لزيارة الأولياء الصالحين في الموالد، في حين كان المسجد مكاناً لأداء صلاة العيدين وإحياء ليالي رمضان بالذكر وتلاوة القرآن، كما كانت المقابر تستقبل أعداداً كبيرة في الأعياد والمواسم, لتتحول بنفسها إلى مكان يتجمع فيه العامة، أما الأسواق فقد كانت مكاناً لاقتناء مستلزمات هذه الأعياد والمواسم كما أنها ارتبطت ارتباطاً مباشراً ببعض عادات العامة في هذه الأعياد والمواسم.

وقد تميزت هذه الأسواق بتخصصها لبضائع معينة, ومن ناحية ثانية ارتبطت ببعض عادات أهل مصر في أعيادهم المتنوعة والمتعددة. عبَّر ابن بطوطة الذي زار مصر في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن إعجابه بمدن مصر وثرائها وكثرة أسواقها [١] حتى إن ((راكب النيل لا يفتقر إلى استصحاب الزاد؛ لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد)) [٢].

فقد تخصص كل سوق في نوع معين من البضاعة وكان اسم السوق يرتبط بنوع البضاعة المتخصص فيها, وهو يبين اهتمام السلطة بتنظيم الأسواق كمكان تجاري يعكس ازدهار المدن ونموها. نجد أسواقاً متخصصة في المواد الغذائية مثل اللحوم والطيور والدواجن والتي انتشرت بجوار الأحياء السكنية. الإضافة إلى أسواق الملابس المتخصصة في بيع الخلع والتشاريف التي كان السلطان يمنحها للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم في الاحتفالات والأعياد ومثال ذلك سوق ((الشرابشين)) [٣] نسبة للشربوش الذي كان يمنح للمماليك عند ترقيتهم وتأميرهم، وسوق ((الحوائصيين)) التي كان يباع بها الحوائص التي يتمنطق بها الأمراء والجنود حول أوساطهم التي يمنحها لهم السلطان في المناسبات والأعياد.

---

١ – ابن بطوطة, تحفة النظار، ص٥٥، ٦٧.

٢ – المصدر السابق، ص٥٣.

٣ – يذكر المقريزي أن هذا السوق قد أحدث بعد الدولة الفاطمية ويمكن أن نعتبره من استحداث المماليك البحرية نسبة للشربوش الذي كان من اختصاصهم، للمزيد انظر المقريزي: الخطط، ج٢، ص٩٧– ٩٨– ٩٩.

كما تواجدت أسواق خاصة بلوازم الجنود من الأسلحة ومعدات الركوب من الرماح والسيوف والقسي والنشاب, والتي كانت تباع بسوق السلاح, و يقتنيها المماليك للحروب أو للتمرين والألعاب الفروسية التي تعرضنا لها في عنصر مواكب الألعاب المملوكية [١].

هذه الأسواق ارتبطت أيضاً بالكثير من العادات الاجتماعية العامة لأهل مصر آنذاك وخاصة المرتبط منها بالأعياد.

أما عن ارتباط الأسواق بالعادات الاجتماعية للعامة وخاصة منها الأعياد. فقد كان السوق مكاناً للتزود بالبضائع التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية وخاصة منها في الأعياد والمواسم باعتبار أن هذه الحاجات تتنوع وتزداد لارتباطها بطبيعة الموسم.

وقد اعتادت النساء خاصة ارتيادها بأعداد كبيرة في المواسم والأعياد الدينية الإسلامية وحتى الأعياد الخاصة بالأقباط مثل خميس العدس الذي تخرج فيه النساء للأسواق لاقتناء البخور والخواتم كعادة ارتبطت بهذا العيد، والتي يصفها لنا ابن الحاج معتبراً هذه العادة من العادات السيئة،بقوله: ((فمنها خروج النساء في ذلك اليوم لشراء البخور والخواتم وغيرها, فتجدهن في ذلك اليوم في الأسواق أكثر من الرجال فمن يمر بالسوق من الرجال لا يقدر على المشي فيه إلا بمشقة لزحمة النساء)) [٢].

أما سوق الحلاويين المخصص لبيع الحلوى، فقد كان يرتاده الناس خاصة في أيام العيد والمواسم التي يكثر فيها استهلاك الحلويات [٣]، ومن هذه المواسم مواسم شهر رجب, ونصف شعبان، وعيد الفطر, وكان يكثر استهلاكهم لهذه الحلويات التي يقدمونها فيما بينهم كهدايا في حين كانت أسواق الشماعين وهي أسواق توجد فيها الحوانيت ((معمورة بالشموع الموكبية والفانوسية)) [٤] التي تخصصت في بيع الشموع والفوانيس، والتي كانت تشهد أزهى فتراتها لارتيادها من قبل أهل مصر خاصة في شهر رمضان، والأعياد وعيد الغطس لاقتناء أعداد كبيرة من الشموع والفوانيس لتزيين المنازل والجوامع والدكاكين خاصة عند إحياء ليالي رمضان احتفالاً بالعيد، كما كانت الشوارع تضاء بهذه الفوانيس عند الاحتفال برجوع السلطان منتصراً من الحرب, أو من شفائه بعد مرض، أوعند مرور موكب السلطان شاقاً المدينة والشوارع.

---

١ – المصدر السابق، ص٩٧– ٩٨– ٩٩.

٢ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٥٤.

٣ – المصدر السابق، ج١، ص٢٩١.

٤ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٩٦.

٣- المساجد والزوايا والمدارس:

شهد عصر المماليك تشييد عدد كبير من المساجد، ولم يكن دور المساجد مقتصراً على العبادة بل كان مخصصاً أيضاً للتعليم الديني، إضافة إلى أن المساجد كانت ترتبط بمظاهر الحياة اليومية. ارتبطت المساجد بعدد من الأعياد الدينية التي كان يقع إحياؤها في المساجد التي كان يحتفل العامة من أهل مصر بها آنذاك باعتبارهم كانوا يخرجون إليها لأداء صلاة الجمعة ، ولأداء صلاة العيدين (عيد الفطر والأضحى) حيث كان يخرج لها ولاة هذه المدن وعدد كبير من العامة حتى النساء، وكما يذكر ابن الحاج باستنكار، يخرجن في أكمل زينة [١] وما يصاحبه من فتن. كما كان يقع إحياء شهر رمضان في المساجد من خلال صلاة التراويح التي يخرج لها الجميع وأكثر من ذلك كانوا يجعلون من المسجد مكان اجتماع ولهو [٢] وما يصحب ذلك من اختلاط النساء والرجال ومن خروج عن الآداب، وإلى جانب المساجد كانت بقية المنشآت الدينية من زوايا ومدارس تؤدي إلى وظائف اجتماعية ترتبط بمواسم معينة.

اهتم سلاطين المماليك بالزوايا والمشاهد اهتماماً بالغاً،والتي يرجع أغلبها للدولة الفاطمية في إطار إحياء ذكرى آل البيت. ومن مظاهر الاعتقاد في كرامات الصالحين والتبرك بها انتشار المشاهد والزوايا التي كان العامة من أهل مصر آنذاك يترددون على زيارتها، وخاصة في المواسم والأعياد ومنها عاشوراء.

كانت أغلب هذه المشاهد [٣] توجد بالقرافة [٤] (الجبانة) التي رغم ارتباطها بظاهرة الموت، فقد كانت مزاراً في الأعياد؛ إذ يخرج العامة لزيارة قبور ذويهم في جماعات، وجعلوا منها أماكن لهو وتنزه حتى أن المقريزي وصفها بأنها معظم تجمعات أهل مصر وأشهر تنزهاتهم [٥].

---

١ – ابن الحاج, المصر السابق، ج٢، ص٢٨٤، ٢٨٨.

٢ – المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٠.

٣ – المشاهد مفردها المشهد وهو المسجد الذي يكون فيه ضريح الولي الصالح.

٤ – ابن بطوطة, تحفة النظار، ص٥٦.

٥ – قاسم عبده, بعض مظاهر الحياة اليومية، ص٢٩.

وإلى جانب وظيفة هذه المدارس التعليمية الفقهية كانت لها علاقة بأعياد واحتفالات المماليك خاصة كرمز, وتحديداً في الاحتفال الخاص بترقية المماليك وتأميرهم [١].

كان المماليك المتخرجين من مؤسسة الطباق بعد فترة تكوينهم, وعند الاحتفال الجماعي بترقيتهم يؤدون قسم أو يمين الولاء للسلطان بهذه المدرسة. وفي البداية كانت تقوم بهذا الدور المدرسة الصالحية كرمز اتخذه سلاطين المماليك عن وعي لإبراز سلطتهم تواصلاً مع سلطنة الأيوبيين معتبرين بذلك الصالح نجم الدين أيوب الأب المؤسس لدولة المماليك, باعتباره مؤسس فرقة المماليك الصالحية, وكل ذلك في إطار البحث عن شرعية الحكم التي كان سلاطين المماليك يفتقدونها عند نشأة دولتهم الجديدة. ثم انتقل مكان أداء يمين الولاء في الاحتفال بترقية المماليك إلى المدرسة المنصورية [٢] ويعود سبب تغيير المكان إلى تغير انتماء سلاطين المماليك من الفرقة الصالحية إلى الفرقة المنصورية بعد تغلب هذه الفرقة، وبالتالي اعتبر المنصور سيف الدين قلاوون مؤسس هذه العائلة الحاكمة الجديدة. واختيار هذا المكان أيضاً كان سعياً من سلاطين المماليك لتدعيم شرعية سلطتهم وانتمائهم للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون, وبالتالي فإنه كان لاختيار المكان رمزيته وهدفه.

يعد النيل وجزيرة الروضة أماكن تستقطب الخاصة والعامة من أهل مصر المملوكية للنزهة والطرب واللهو خاصة في الأعياد الدينية, وكان الاحتفال بهذه الأعياد (وخاصة النوروز وعيد الشهيد لارتباطهما بالنيل) بمثابة المهرجان على شاطئ النيل, فقد كان الناس يخرجون في أعداد غفيرة من كل أنحاء مصر للاجتماع على صفحة النيل في القوارب أو على جزيرة الروضة حيث يصحبهم أرباب الملاهي لإقامة الاحتفالات من خلال الغناء والطرب, وتكثر في هذه المناسبات كل أنواع اللهو والمجون، ومظاهر الفساد والفتن حتى إن السلطان المملوكي كثيراً ما كان يصدر أوامره بمنع الناس من ركوب النيل، لما كان يصحب اجتماعاتهم في هذه الأعياد من مظاهر الفساد.

كان السلطان يخرج عند الاحتفال بوفاء النيل ويركب الذهبية في حين يركب الأمراء الحراريق حتى إن النيل لا يرى من كثرة هذه الحراريق ومن ضخامة الاحتفال، وقد كان النيل مكاناً لإقامة الألعاب البحرية المتمثلة خاصة في اللعب بالشواني الذي كان يخرج له السلطان والأمراء والعامة من

---

١ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٣٨٠.

٢ – المقريزي, الخطط، ج٢٥، ص٣٨٠.

أهل مصر لمعاينة هذه الألعاب, وما يظهر من خلالها من قوة المماليك العسكرية البحرية ليكون ذلك اليوم من الأيام المشهودة لما يصاحبه من اللعب واللهو [١].

ثانياً- دور اليهود والنصارى في الحياة الاجتماعية:

جعلت طبيعة نظام الحكم في دولة سلاطين المماليك لهذه الدولة خصائص ميزتها كظاهرة فريدة. فلم تكن النظرية السياسية لهذه الدولة قائمة على مبدأ الوراثة في الحكم، أو التفويض الشعبي أو الانتخاب بل قامت على أساس التنافس بين الأمراء على السلطنة. ومن ثم اتخذت العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم من أهل الذمة طابعاً خاصاً. وفي هذا المجال حرص السلاطين على تقرير التزامهم العدالة تجاه أبناء الأقليات الدينية عملاً بتعاليم الدين الإسلامي من ناحية، كما أنهم مارسوا عليهم ضغوطاً شتى إرضاءً لأهل العمامة الذين اعتمد عليهم السلاطين كثيراً نظراً لنفوذهم الواسع من ناحية أخرى، كما أن الثروات التي اقتناها بعض اليهود والنصارى نتيجة عملهم في الجهاز الإداري كانت تسيل لعاب السلاطين،ولا سيما في أوقات الشدة، فيبادرون إلى مصادرتها. وهنا ينبغي الإشارة إلى أن المصادرة كانت سمة عامة من سمات السياسة الداخلية في عصر المماليك ولم تكن انطلاقاً من دوافع دينية، وإنما كانت تعبيراً عن طبيعة علاقة أولئك الحكام العسكريين برعاياهم من المسلمين وأهل الذمة على السواء [٢].

بدأ نفوذ الأقليات يزداد تحديداً في الميدان الإداري, وقد فزع المسلمون من نفوذ أبناء هذه الأقليات الناتج عن توليهم وظائف الإدارة المالية, فاتهموهم بالتحكم في مقدرات المسلمين، وبأنهم استخدموا نفوذهم ((في دفع من يتعرض لهم)) وغير ذلك من التهم [٣].
وعلى أية حال، فإنه من المهم التركيز في هذه الدراسة على دور الأقليات الدينية في الحياة الاجتماعية آنذاك، فقد شارك اليهود والنصارى في نشاط المجتمع المصري الذي كانوا جزءاً لا يتجزأ

---

١ – المقريزي, السلوك، ج١، ص٩٢٨.

٢ – قاسم عبده قاسم, أهل الذمة، ص٦٣– ١٠١/
Atiya (A.S) The Crusades in The Middle Ager (London 1938) P. 272.

٣ – ابن الأخوة (محمد بن محمد): معالم القربة في أحكام الحسب، نشره ليفي، كمبردج ١٩٣٧ م.

منه يتأثرون بأحداثه الجارية ويؤثرون فيها، كما يخضعون للظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التي يخضع لها المجتمع.

ففي تظاهرات الاستقبال السياسية التي كانت سمة عامة من سمات الحياة المصرية في عصر المماليك– كان أبناء الطوائف اليهودية والمسيحية يشاركون المصريين المسلمين في استجابتهم لأوامر السلطات الحاكمة (ممثلة في الوالي أو المحتسب) بتزيين الحوانيت, والأسواق والتجمع على طول طريق الموكب السلطاني, وهم يحملون كتبهم المقدسة, والشموع الموقدة مشاركة منهم في هذه المناسبة [١]. وفي سنة ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م خرج المصريون وبينهم اليهود والنصارى لاستقبال السلطان الأشرف بمناسبة عودته من رحلة صيد [٢].

ومن الناحية الاقتصادية ساهم المسيحيون واليهود في أعمال صيانة كثيرة مثل مرافق الري، وكان اشتراكهم في مثل هذه الأعمال يتم برغبتهم في بعض الأحيان، أو بإجبارهم وتسخيرهم مثل سائر المصريين أحياناً أخرى.

ومن الناحية الاجتماعية، تشير المصادر إلى أن أهل الذمة قد تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية داخل إطار الحياة العامة للمجتمع ككل، بل إن بعض الوثائق اليهودية المعروفة باسم (الجنيزا) كتبت بأيدي المسلمين والمسيحيين الذين كانت تربطهم باليهود علاقة من نوع ما [٣]. ولكن هذه الحريات كانت تخضع من حين إلى آخر لبعض القيود التي كانت تفرضها الدولة لسبب ما، غير أن هذا لم يمنع أبناء الأقليات الدينية من القيام بدورهم في المجتمع والمشاركة الإيجابية في الحياة اليومية التي يؤثرون فيها بقدر ما تسمح ظروف تعدادهم وأوضاعهم الاجتماعية، ويتأثرون بأحداثها ومجريات الأمور فيها.

ظهر تأثير اليهود والنصارى واضحاً في عادات وتقاليد المجتمع المصري آنذاك فيما أشار إليه ابن الحاج من أن بعض نساء المسلمين كن يقمن بعض التصرفات في حياتهن تبدو التأثيرات اليهودية والمسيحية واضحة عليها، فقد اعتادت بعض النساء ألا يشترين السمك أو يأكلنه في بيوتهن

---

١ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١٠٩.

٢ – ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ الدول والملوك، نشره قسطنطين زريق، بيروت ١٩٤٢، ج٧، ص١٩٩/ ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج١٢، ص١٣.

٣ – Rabie, The financial system of Egypte Oxford university press 1972. P3

يـــوم الســـبت (*ومـــن المعـــروف أن اليهـــود قـــد حرمـــوا علـــى أنفســـهم صـــيد الســـمك أو أكله يوم السبت*)، كما ظهر تأثرهن بالعادات المسيحية في عدم الاشتغال بشيء في ليلة الأحد[١].

ومن العادات الاجتماعية التي أثارت احتجاج ابن الحاج واستنكاره باعتبارها ذات أصل غير إسلامي، تلك العادة التي أشار إليها بقوله ((إذا نزلت الشمس في برج الحمل فيخرجون في صبيحة يومهم ذلك رجالاً ونساءً وشباناً، يجمعون شيئاً من نبات الأرض يسمونه بالكركيس فيقطعون ذلك من موضعه بالذهب والفضة والخواتم النفيسة والأساور وغير ذلك... الخ)) [٢].

يبدو تأثير اليهود والمسيحيين في العادات والتقاليد المصرية في عصر سلاطين المماليك كان واضحاً لدرجة أثارت استياء ابن الحاج الذي شكا من أن المصريين المسلمين ((... *وضعوا تلك العوائد موضع السنن*)) [٣].

ولعل من أكبر الدلائل على أن روح الوئام الاجتماعي قد سادت في كثير من الأحيان بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية في ذلك العصر ما حدث سنة ٧١٤ هـ/ ١٣١٤ م حين استعار الأقباط بعض القناديل، وأثاث جامع عمرو بن العاص لكي يستخدموها في أحد اجتماعاتهم الدينية في الكنيسة المعلقة بمصر القاهرة [٤] وهو ما يثبت على الاعتقاد أن ثمة علاقات وطيدة كانت تربط بين أبناء الأقليات وغيرهم من المصريين في ظروف الحياة العادية.

وهناك دليل على قوة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأبناء الطوائف الذمية أن بعض المواسم والأعياد الخاصة بالمسيحيين اتخذت طابعاً عاماً. وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل، مما يشير إلى جذورها التي امتدت إلى أيام المصريين القدماء, كما شارك المسلمون و المسيحيون واليهود في بعض الأعياد الأخرى بمظاهر المجاملة الاجتماعية، وتبادل الأطعمة والحلوى وغيرها من الهدايا.

ارتبطت بعض عادات المصريين الاجتماعية ببعض الأعياد المسيحية، فقد اعتاد المصريون أن يصنعوا نوعاً من العصيدة في ((عيد الميلاد)). وكانوا يعتقدون أن كل من يأكل منها لا يصاب

---

١ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج، ص٦.

٢ – المصدر السابق، ج١، ص٢٨١.

٣ – المصدر السابق، ج٣، ص٦٥.

٤ – المقريزي, السلوك، ج٤، ص٤١٠/ السيوطي, حسن المحاضرة، ج٢، ص٢١٨/ ابن حجر, إنباء الغمر، ج٣، ص١١١.

بالبرد طوال السنة. كذلك تعوَّد الناس على مشاركة المسيحيين عادة غمس أطفالهم في المياه في عيد الغطاس الذي يحل في الشتاء بسبب ما اعتقدوه من أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم. وكان من عادة النساء أن يطلقن البخور في بيوتهن في ((خميس العهد)) بزعم أنه يصرف عنهن العين والكسل والأمراض. وفي ((سبت النور)) كان البعض يكتحلون بالكحل الأسود؛ لأن ذلك يكسبهم نوراً زائداً في أبصارهم [١].

وفي تلك العصور كانت فكرة ((الوطن)) فكرة دينية بحتة وتتعلق بجماعة المؤمنين أكثر مما تتعلق بالأرض وحدودها الجغرافية؛أي أن الوطن الذي يجمع الناس في الحياة الدنيا التي هي مقام زائل ليس هي الأرض كتعبير جغرافي بقدر ما هي الدين والعقيدة التي تربط بين أبناء الأمة، وتعيش الأقليات الدينية في حماية جماعة المؤمنين، ويتمتعون بكافة حقوقهم شرط ألا تعلو مكانتهم فوق مكانة جماعة المؤمنين. إن تراث الاحتكاك الحضاري بين المسلمين والغرب المسيحي بما تخلله من حروب طويلة وعنيفة، منها تلك السلسلة المعروفة باسم الحروب الصليبية، خلف شعوراً بالمرارة تجاه غير المسلمين [٢].

كما أن ثروات أهل الذمة التي كونوها بفضل عملهم في الجهاز الحكومي والتدهور الاقتصادي المستمر لجموع المسلمين جعلت الناس يعبرون عن موقفهم الاجتماعي المتعالي على غير المسلمين تعبيراً دينياً. وبعبارة أخرى فإن العوامل الاقتصادية والاجتماعية قد ألبست ثوباً دينياً لتخلق هذا الموقف الاجتماعي على الرغم من تعارضه مع روح الإسلام، وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر النظرة التي تفترض ألا يكون أبناء الأقليات الدينية زمن المماليك أعلى من مكانتهم الاجتماعية من المسلمين.

ومهما يكن من أمر، فالواضح أن المسيحيين قد عاشوا حياتهم بشكل عادي داخل إطار المجتمع، وغالباً ما كان واقع حياتهم يتجاوز هذه المفاهيم التي ظلت في كثير من الأحيان كامنة في الصدور ولا تعبر عن نفسها سوى في لحظات الإثارة أو الغضب, أما عن دور أهل الذمة في الحياة الثقافية والعلمية في عصر المماليك، فالواقع أن المعلومات المتاحة بهذا الشأن قليلة.

ثالثاً- مظاهر الأعياد وارتباطها بالاستقرار الاجتماعي والسياسي:

---

١ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٥٤– ٥٩.

٢ – قاسم عبده قاسم, أهل الذمة، ص١١٠.

تقدم الاحتفالات والأعياد مؤشرا هاماً وصادقاً على مدى تقدم المجتمع وما يتمتع به من استقرار اقتصادي وسياسي واجتماعي؛ لأن النظرة على الكثرة من الأعياد والاحتفالات، وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية تكشف صورة تفيض بالبهجة والإشراق لمجتمع يعيش حياة مستقرة في ظل نظام سياسي متين واقتصاد مزدهر، وأوضاع أمنية وطيدة الأركان جعلت هذه الصورة صحيحة في مجملها. كانت دولة سلاطين المماليك في طور الصعود والنمو والقوة، تتمتع بقدر كبير من الثراء والقوة مما جعلها حاكمة قادرة في الداخل، مرهوبة مهابة في الخارج. وتحقق للمصريين قدراً كبيراً من السلام والرخاء النسبي انعكس في النمو السكاني والرواج التجاري الداخلي [١].

كما تمثل في اهتمام الناس بجوانب التسلية والترفيه في حياتهم. و ذكر ابن بطوطة الذي زار مصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون في النصف الأول من القرن الرابع عشر أن أهل مصر ((*لهو طرب وسرور ولهو*)) [٢]. ولا شك أن عصر الناصر محمد بن قلاوون يعدُّ من أهم فترات التاريخ المملوكي وأكثرها استقراراً وازدهاراً. غير أن ما ذكرناه لا يعني بأية حال أن الصورة كانت مشرقة على الدوام في الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك، وإنما يعني أن الألوان الزاهية في هذه الصورة كانت غالبة على الألوان القاتمة والشاحبة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الفترات التي شهدت صراعاً على كرسي الحكم في عصر المماليك البحرية كانت تترك تأثيراتها السلبية بالضرورة على الأعياد والاحتفالات التي يهتم الناس بها. ولكن البلاد كانت تعيش حياة أفضل بكثير من تلك التي شهدتها مع مطلع القرن الخامس عشر وحتى نهاية ذلك العصر. وإذا ما بدأت دولة المماليك بالتدهور انعكس ذلك بوضوح على كافة مظاهر الحياة على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأمنية، وتتواضع مظاهر الاحتفال في الأعياد والمواسم والمناسبات العامة إلى أدنى مستويات.

فقدت الأعياد بهجتها بسبب توالي الأزمات الاقتصادية والأوبئة فضلاً عن تدهور الأحوال السياسية الداخلية, وانتشار الخوف والفزع من ظلم الحكام وانعدام الأمن، إذ يذكر ابن الصيرفي أن عيد الفطر في سنة ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧ م دخل على الناس وهم ((في نكد وجزع وقلق وهم ومصاب...))

---

١ – قاسم عبده قاسم, عصر سلاطين المماليك، ص٢٨٨.

٢ – ابن بطوطة, المصدر السابق، ص٣٢.

بسبب تزايد ضحايا الوباء من ناحية، وكساد الحركة في المدينة بسبب أوامر السلطان بعدم خروج النساء من بيوتهن، فضلاً عن ظلم الحكام وتخبط سياسة الدولة من ناحية أخرى [١].

ويذكر المقريزي أن بعض الأسواق التي ارتبطت بالمواسم والأعياد التي كانت تزدهر وتموج بالحركة والنشاط أثناءها قد تعرضت للذبول والاضمحلال؛ إذ إن ((سوق الشماعين)) على سبيل المثال الذي ارتبط بليالي رمضان والعيد عند المسلمين، والميلاد والغطاس لدى المسيحيين تعرض للكساد بسبب عدم إقبال الناس على شراء الشموع بعد تدهور الأحوال في منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي حتى آل أمره إلى خمسة حوانيت فقط [٢] كما تواضعت مظاهر الاحتفال بأعياد المسيحيين لهذا السبب نفسه [٣].

رابعاً- موقف المماليك من أهل الذمة:

تحددت علاقة المماليك بأهل الذمة من خلال نظام سلاطين المماليك؛ لأن طبيعة نظام الحكم من شأنها أن تحدد العلاقة مع الأقليات الدينية، وباعتماد المماليك على مبدأ القوة والاختفاء وراء الواجهة الدينية، فقد كانت علاقتهم مع أهل الذمة بين التسامح الديني الذي تفرضه الشريعة الإسلامية من خلال السماح لهم بممارسة طقوسهم الدينية الخاصة.

تعرض أهل الذمة للاضطهاد في بعض الأحيان من قبل سلاطين المماليك الذين حرصوا على إظهار قوتهم، إما مرضاة لرجال الدين من المسلمين الذين كان يعتمد عليهم المماليك، أو من خلال مصادرة أموالهم وأوقاف الكنائس والأديرة وخاصة أثناء حروبهم مع الصليبيين [٤].

وقد حاول سلاطين المماليك الظهور دائماً بمظهر الحامي لأمور الرعية، وخصوصاً أهل الذمة فأصدروا مراسم تأمر لأهل الذمة (أن تكون جهتهم مرعية على الدوام وذمتهم محفوظة بذمة الإسلام) [٥].

---

١ – ابن الصيرفي, المصدر السابق، ج٣، ص٤٠٧.

٢ – المقريزي, الخطط، ج٢، ص٩٣– ١٠٦.

٣ – المصدر السابق، ج١، ص٢٦٦– ٢٦٨/ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٦، ٤٣٠/ السيوطي (جلال الدين): كوكب الروضة، القاهرة, ١٩٧٩, ص١٩٥/ ابن إياس: نزهة الأمم، ص٢١٩.

٤ – المقريزي, الخطط، ج١، ص١٠٥.

٥ – قاسم عبده قاسم, أهل الذمة، ص٦٤.

اختلفت علاقة المماليك بأهل الذمة من يهود ونصارى, فقد كان النصارى يمثلون الأغلبية مقارنة باليهود الذين كانوا طائفة قليلة العدد والوزن، فقد كان النصارى يتمتعون بحماية خارجية من الكنيسة الرومانية والحبشية التي كانت تتدخل للدفاع عن مصالحهم [١]. أما اليهود فلم تكن هناك قوة خارجية تتدخل لصالحهم.

ويتضح أن غياب دولة لليهود في أي بلد من البلدان كان سبباً في عزلتهم. لكن يجب التأكيد على ناحية أن أهل الذمة كان عليهم الالتزام ببعض القيود من حيث الزي أو اللباس المغاير لتمييزهم عن المسلمين. فقد ألزم النصارى باللون الأزرق واليهود باللون الأصفر، وعليهم أن يميزوا أنفسهم بالصلبان حين دخولهم الحمامات [٢].

يتضح من هنا أنه كان لأهل الذمة دور في المجتمع من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. أما من الناحية الاجتماعية, فقد كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع في تلك الفترة، ومن أهم المظاهر التي شاركوا فيها مساعدتهم في تهيئة المدينة وتزيين الأسواق والمحلات عند استقبال مواكب السلاطين [٣].

كما كانوا يمارسون مختلف الأنشطة الاقتصادية، فقد تخصص النصارى في النشاط الزراعي إلى جانب التجارة وبعض الصناعات الصغيرة [٤]. أما اليهود فقد برعوا في النشاط المصرفي والأعمال المالية [٥].

لكن هذا لا يعني أنهم كانوا لا يتعرضون للاضطهاد من طرف السلطة أو العامة وهذا أيضاً لم يمنع من انصهار أهل الذمة في المجتمع وذلك في التأثير ببعض العادات، ومن أولى مظاهر التأثر بالمسلمين هو اعتناق عدد من أهل الذمة للإسلام [٦] وإن كان بعض الباحثين يرى إسلام أهل الذمة كان لغاية اقتصادية أو أمنية، فسموا بالمسالمة لكن منهم من حَسُن إسلامه [٧].

---

١ – André Clot, L'Empire des esclaves, P. 227

٢ – ابن دقماق, المصدر السابق، ص٣٩٥.

٣ – ابن تغري بردي, المصدر السابق، ج٧، ص١٠٩.

٤ – قاسم عبده قاسم, عصر سلاطين المماليك، ص٩٥.

٥ – عبد الفتاح عاشور, المجتمع المصري، ص٤٠.

٦ – قاسم عبده قاسم, أهل الذمة، ص١٧٣.

٧ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٢٧١.

أما عن تأثر اليهود بالمسلمين فقد اتبعوا بعض عاداتهم مثل فرش الأرض بالسجاد ودخولهم المعبد دون أحذية كما يفعل المسلمون عند دخولهم المساجد [١].

وقد كان أهل الذمة والمسلمون يتشاركون في خروجهم لصلاة الاستسقاء والابتهال عند انخفاض مياه النيل أو تأخر فيضانه، ومثال ذلك ما حدث سنة ٧٧٥ هـ- ١٣٧٣ م حين توقفت زيادة النيل وانتشرت المجاعة, فخرج الجميع للصلاة مسلمون ومسيحيون ويهود وهم يحملون كتبهم المقدسة للصلاة حتى تزول عنهم الشدة [٢].

خامساً- موقف المسلمين من احتفالات أهل الذمة:

اعتاد المسلمون مشاركة أهل الذمة أعيادهم، وتمثلت هذه المشاركة في تبني هذه الأعياد وتعظيمها أو تبادل الهدايا مع أهل الذمة وخاصة هنا النصارى منهم.

تعد المصادر التاريخية هذه الظاهرة كنوع من الابتعاد عن الشريعة الإسلامية وتشبههم بأهل الذمة. ففي خميس العهد أو كما يسميه عامة المصريين خميس العدس؛ وهو من أعياد النصارى الرئيسة أو كما يقول ابن الحاج ((*موسم من مواسم أهل الكتاب التي شاركهم فيها بعض المسلمين*)) [٣].كان المسيحيون يهدون إلى المسلمين أنواعاً من السمك المقلي والعدس المصفى والبيض الملون.

كما اعتادت النساء المسلمات في هذا اليوم الخروج للأسواق وشراء البخور واستعمال العدس المصفى, وصباغة البيض في ألوان عديدة، وشراء السلاحف التي تطرد الشيطان من البيت حسب زعمهم.

كما شارك المسلمون المسيحيون احتفالات عيد الميلاد، حيث كان المسلمون يصنعون عصيدة ويزعمون أن من لم يصنع هذه العصيدة أو لم يأكل منها, فإنه يشتد عليه البرد طوال السنة[٤].

أما في عيد الغطاس الذي اعتاد فيه النصارى الاغتسال، فإن المسلمين أيضاً صاروا يتبعون عادة وضع أولادهم في المياه الباردة اعتقاداً في أن ذلك يُبعد عنهم الأمراض [١].

---

١ – قاسم عبده قاسم, اليهود في مصر، ١٩٧٧ القاهرة, ص٦٩.

٢ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٢٧٢.

٣ – ابن الحاج, المصدر السابق, ج٢، ص٥٤. / متز(ادم): الحضارة الاسلامية, دار الفكر, بيروت, ١٩٩٠, ج٢, ص ٢٨٢./ الزين(حسن): أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي, القاهرة, ١٩٨٦, ص ٣٦- ٣٧.

٤ – المصدر السابق، ج٢، ص٥٩.

وفي عيد الزيتونة كان يحدث اختلاط بين المسلمين والنصارى أثناء الاحتفال، وفي سبت النور كان البعض يتكحل بالكحل الأسود اعتقاداً بأن ذلك يعطيهم نوراً زائداً في أبصارهم [٢].

لم يتوقف الأمر عند مشاركة المسلمين النصارى في أعيادهم بل إنهم تأثروا ببعض عاداتهم وهذا يدل على التعايش الاجتماعي بين مختلف الطوائف الدينية في الدولة المملوكية.

فقد كان من عادات النساء عدم شراء السمك أو أكله يوم السبت وفي هذا اتباع لعادات اليهود، كما كان من عاداتهن أيضاً عدم الدخول إلى الحمام يوم السبت وعدم غسلن الثياب، وعدم شراء الصابون، وذلك كله من عادات اليهود المتعلقة بحرمة يوم السبت, ونرى هنا أن المسلمين تأثروا بعادات النصارى واليهود وهو ما يؤكد من جديد التعايش بين الطوائف الثلاث.

ومن عادات النصارى التي اتبعها المسلمون ترك العمل ليلة الأحد، كما اعتادوا عدم شراء اللبن ولا شربه يوم الأحد كما كان المسلمون يصنعون في أعياد أهل الذمة أطعمة معينة يتهادون بها فيما بينهم [٣]

لكن هنا لا بدّ من التأكيد على ناحية مهمة، أن المسلمين والنصارى لم يشاركوا اليهود في احتفالاتهم الدينية، نظراً لما اشتهر به اليهود من الحرص على العزلة.

الخاتمة

---

١ – المصدر السابق، ج٢، ص٥٩./ المقريزي, الخطط، ج١، ص٢٦٥.

٢ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٦٠.

٣ – ابن الحاج, المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٢.

تعطي جميع الملاحظات التي وردت في البحث صورة لبلاد مزدهرة اقتصادياً,وقوية عسكرياً وسياسياً , تتدفق حياتها الاجتماعية بالحيوية والنشاط , وهذه الصورة تتفق بشكل عام مع ما ذكرته المصادر التاريخية من أن عصر المماليك كان عصر قوة مهابة في الخارج, وازدهار ورخاء في الداخل.

ويمكن القول: إن الفترة التي تناولها البحث كانت فترة مهمة،وغنية بالحوادث والمستجدات بفعل عوامل عديدة مملوكية وخارجية, إضافة إلى الظروف المحلية, ومن جهة أخرى فإن التغيرات الاجتماعية في وجوهه المختلفة لم تكن على مستوى واحد, بل تفاوتت بين جانب وآخر بحيث ظهر التغير واضحاً في أحد الجوانب, في حين بقيت جوانب أخرى كأنها جامدة على حالها دون تأخر أو أي تطور.

تعطي دراسة الاحتفالات المملوكية صورة واضحة عن طبيعة المجتمع المملوكي ومكوناته, وعلاقة السلطة بكافة طوائفه, وخاصة علاقتهم بأهل الذمة الذين كانوا عنصراً فعالاً في المجتمع وقد تأثروا بالمسلمين وأثروا بهم.

كما بينت علاقة المماليك بالشيعة وموقف المماليك منهم على اعتبار أنهم دولة سنية, فقد قاموا على إلغاء عيد عاشوراء, وحولوه من عيد حزن إلى عيد فرح, وأصبح مقتصراً على النطاق الشعبي لم يكن للمماليك فيه دور يذكر.

أما الخوض في غمار الأعياد المملوكية فقد يمكن للدارس من خلالها التعرف على عادات المماليك وطبيعة النظام السياسي لهذه الدولة, وقد كان الهدف من تولية الخليفة العباسي في القاهرة بعد سقوطها في بغداد ضمان شرعية الحكم والحصول على التفويض بالسلطنة، وضمان استقرار وتواصل حكم المماليك على مصر.

كان قيامهم بإرسال كسوة إلى الكعبة سنوياً من خلال المحمل السلطاني رمزاً سياسياً ودليل قوة ورخاء,كما حققوا دوراً فاعلاً من خلال بروزهم كقوة وحيدة قادرة على صد الأخطار الخارجية الصليبية والمغولية التي كانت تهدد المنطقة.

ويظهر من خلال إحياء مختلف الأعياد حُرص المماليك على الظهور في المواكب وأهمها مواكب التولية , وإظهار قوة الدولة وهيبتها من خلال ما يظهر من شعائر السلطنة التي يركب فيها السلطان المملوكي, والتي يظهر من خلالها دور سلاطين المماليك في استحداث بعض الأنظمة الإدارية والتوفيق بين الأنظمة الإسلامية السابقة, والأنظمة التي اقتبسوها.

ومما يؤكد محورية مكانة السلطان وجنوح المماليك إلى الاهتمام بالاحتفالات, وخاصة منها المتعلقة بالسلطان, كانت هذه الظاهرة محط اهتمام المؤرخين وهو ما يبين تكرار هذه الظاهرة مع معظم سلاطين المماليك.

وقد استطاع المماليك إظهار قوتهم وهيبة دولتهم من خلال الألعاب التي كانت الغاية منها الترفيه, والتدرب على فنون الحرب , وهذا ما جعل المماليك دائماً في جاهزية تامة لصد أي خطر خارجي.

ومن خلال دراسة الأعياد المصرية المرتبطة بالنيل بيَّنا خصوصية الاحتفال بها, حيث تميزت هذه الأعياد بمشاركة جميع المصريين في إحيائها بمختلف طوائفهم الدينية وطبقاتهم الاجتماعية.

ويبدو أن الاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي للدولة المملوكية قد ساهما في تعدد الأعياد وإحيائها بكل ما يظهر من مظاهر الترف واللهو, وهذه الأعياد ساهمت في نمو المدينة المملوكية, وهذا ما دفعنا إلى القول: إن الاحتفالات تمثل مؤشراً على الاستقرار الاجتماعي, والاقتصادي وخاصة منه الثراء الحضاري.

والبحث في الأعياد المملوكية هو محاولة للتعرف على جانب من جوانب الحياة اليومية التي تتسم بأنَّها من أزهى الفترات في العصور الوسطى, وهذه المناسبات تميزت بكثرتها وتنوعها وامتدادها على مدار السنة الهجرية, وخاصة ما يصحبها من احتفالات صاخبة ومظاهر ترف وبذخ.

تميز المجتمع المصري بازدواجية ظاهرها التقوى, وباطنها انحلال وفساد أخلاقي تمثل أحياناً ببعض العادات والتقاليد البعيدة عن الإسلام وما يدعو له الدين الإسلامي, وهذا يوضح مدى تأثير المماليك بالمسلمين وابتعادهم عن الجانب الروحي، والميل أكثر نحو حب الظهور وكثرة اللهو والمجون.

وهذا كله يدفع إلى القول: إن ظاهرة الفساد والعادات التي كانت تصاحب الاحتفالات سواء منها الدينية أو العامة ليست ظاهرة تدل في بعض الأحيان على الاندماج الاجتماعي بين المسلمين

وأهل الذمة في العصور الوسطى كما ذهبت معظم الدراسات التي سعت لبيان هذه الظاهرة فقط, بل هي قضية أوسع بينت الانحلال الذي ساد المجتمعات الإسلامية في القرون الوسطى بصفة عامة, إضافة إلى مظاهر اللهو والسرور المتطرف, نتيجة ثراء وترف هذه الدول والتي تجلت في دولة المماليك بشكل خاص.

ويلاحظ هناَ نوع من التضارب أو التناقض، فمن ناحية نلحظ من خلال المصادر التاريخية حرص المماليك وخاصة منهم السلاطين على المحافظة على كل المظاهر الدينية من خلال إحياء الأعياد والمواسم الدينية الإسلامية,وإحياء كل رموزه من اهتمام بالمساجد والمنشآت المعمارية الإسلامية ليس في مصر فقط وإنما في كل المناطق.

ومن ناحية أخرى يلاحظ تفشي مظاهر الانحلال, والفساد الأخلاقي, والعادات المستهجنة والفوضى الاجتماعية, وهذا يوضح الإشكالية الأساسية في البحث وهي أن المماليك لم يتمتعوا بروح الإسلام, وإنما تبنوا هذه المظاهر الدينية برموزها لخدمة مشروعهم السياسي،وبالتالي والحصول على الشرعية المفقودة لحكمهم من أجل ضمان استقرار واستمرار دولتهم الناشئة.

وهذا ما يدفع للقول: إن الدولة المملوكية نظام تميز بارتكازه على ركيزتين أساسيتين هما: القوة العسكرية للسلطان, والمتجسدة في قوة المماليك وتأييد الأمراء لسلطانهم, والثانية هي الواجهة الدينية, والمتمثلة في الحصول على التفويض من الخليفة العباسي الذي يضمن شرعية سلاطين المماليك.

والله ولي التوفيق

الفهارس

فهرس الآيات

سورة الأحزاب، آية ٥٠

سورة الروم، آية ٢٨

سورة الغور، آيات ٣١ - ٣٣- ٥٨

سورة النحل، آية ٧١

سورة النساء، آيات ٣ – ٢٤ - ٢٥- ٣٦

فهرس الأعلام

أحمد بن طولون ٨١

أنطوخيوس ٧٨
أيبك ٣٣ – ٣٤ – ٨٧
بدر الدين لؤلؤ ٣٤
برقوق ٣٧
بهاء الدين بن حنا ٨٢
بيبرس ٣٥ – ٨١ – ٨٢– ٨٣ – ٨٤ –٨٥ – ٨٨ – ٨٩– ٩٠ – ٩٢ – ١٠٦
توران شاه ٣٠ – ٣١
شجرة الدر ٣١ – ٣٣– ٨١
الصالح إسماعيل بن محمد ٥٤
الصالح أيوب ٣٠–٣١
صلاح الدين الأيوبي ١٢ – ١٣٣
علم الدين سنجر المنصوري ٥٣
فخر الدين بن عثمان بن مسافر ٢٩
قطز ٣٣– ٨٧ – ٨٩
قلاوون ٢٩
لويس التاسع ٣١
محمد الاخشيد ٨١
الناصر محمد بن قلاوون ١٠٤
نور الدين علي بن المعز ٧٨

فهرس الأماكن

بغداد ٨١ – ٨٢ – ٨٤

بلاد الشام ٢٧ – ٣١ – ٣٤
الحجاز ٦٩ – ٨٢
جورجيا ٣٦
حلب ٣٥
حماه ٣٥
دمشق ٣٥
دمياط ٣٠
الريدانية ٦٩ – ٨٢
السودان ٣٣
العراق ٨١ – ٨٢
عين جالوت ٣٥– ٨٢
غزه ٣٣
الفسطاط ٦٩ – ٨٢
فلسطين ٣٣
القاهرة ٢٩–٧٨– ٨١ – ٨٤ – ٨٥ –٨٨ – ٩١ – ٩٨ – ١٠٣ – ١١٠
القبجاق ٢٩
القفقاس ٢٩
كيفا ٣٢
مصر ٢٩– ٣١ – ٣٢– ٨٢ – ٨٥ – ٨٧ – ١٠٣ – ١٢٠
المقدس ٣١

المنصورة ٣١
الموصل ٣٤

أسماء المصادر و المراجع

المصادر

١. ابن الأخوة (محمد بن محمد): معالم القربة في أحكام الحسب، نشره ليفي، كمبردج ١٩٣٧ م.

٢. ابن الحاج(أبو عبد الله محمد بن محمد): المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات, القاهرة, ج٢, ١٩٢٩.

٣. ابن الزيات, الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة. القاهرة,١٩٦٦.

٤. ابن الصيرفي(علي بن داوود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان, تح حسن حبشي, القاهرة ١٩٧٠- ١٩٧٣ ,ج٣.

٥. ابن العماد (الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي): شذرات الذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ج٥.

٦. ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ الدول والملوك، نشره قسطنطين زريق، بيروت ج٧، ١٩٤٢.

٧. ابن الوردي, تاريخ ابن الوردي، القاهرة, ١٢٨٥هـ, ج١.

٨. ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد):

- نزهة الأمم في العجائب والحكم, القاهرة, ١٩٥٦.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور, تح محمد مصطفى, ط٢, القاهرة, ١٩٦٣.

٩. ابن بطوطة(محمد بن عبد الله): تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، القاهرة, ١٩٨٥.

١٠. ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ط١، ج٦.

١١. ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، ط١، ١٩٨٠، ج٥، .

١٢. ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، م٦.

١٣. ابن دقماق(ابراهيم ابن محمد): الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين, تح سعيد عاشور, مركز البحث العلمي , السعودية.

١٤. ابن شاهين, زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك, باريس, ١٨٩٤.

١٥. ابن طولون(محمد): إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى, تح محمد دهمان, دمشق, ١٩٦٤.

١٦. ابن ظهيرة, الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة, تح مصطفى السقا, القاهرة, ١٩٦٩، ج٢.

١٧. ابن عبد الظاهر (محي الدين):

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٧٦.
- تشريف الأيام والعصورفي سيرة الملك المنصور, تح مراد كامل, القاهرة, ١٩٦١.

١٨. ابن كثير (أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي): البداية والنهاية، توثيق علي محمد حسن، دار الكتب العلمية، ١٩٧٤، ج١٦.

١٩. ابن منظور- (جمال الدين محمد): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٩٩٧، ج١.

٢٠. ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧، ج٢.

٢١. أبو الفداء (اسماعيل بن عمر): المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب، بيروت، ج١، ج٣، ص١٨٠/ المقريزي(أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه أحمد مصطفى

زيادة, مطبعة التأليف, مصر, ط١, ١٩٥٨ ج١

٢٢. أبو شامة (شهاب الدين بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم القدسي الدمشقي): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ابراهيم زيبق، ط١، ١٩٩٧، ج٣.

٢٣. الأصفهاني (عماد الدين): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة، د. ت.

٢٤. البيروني(أبو الريحان): الآثار الباقية, طبعة ادوارد سخاو, ١٩٧٨,

٢٥. حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بيروت، ج١.

٢٦. الحموي (ياقوت): البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤.

٢٧. الدوادار(ابن أيبك): الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، نشر روبرت رويمر, القاهرة, د.ت, ج٩، ص٨٢. النويري, المصدر السابق، ج٣٠.

٢٨. الذهبي (الحفظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٨.

٢٩. الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٩٧، ج٤.

٣٠. السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج٢.

٣١. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن):
- حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، م٢.
- السيوطي (جلال الدين): كوكب الروضة، القاهرة, ١٩٧٩.

٣٢. الشجاعي(شمس الدين): تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الناصري وأولاده، الهيئة المصرية للكتاب, القاهرة, ١٩٦٠.

٣٣. الصفدي (صلاح الدين خليل): الوافي بالوفيات، تحقيق محمد عمر، دار فرانز ط٢، ١٩٧٤، م٢.

٣٤. الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، ١٩٣٥، ج٥.

٣٥. العسقلاني (ابن حجر):

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٩٦، ج١.
- أنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦، ج٧.

٣٦. العمري(شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح دورتينا كرافولسكي, المركز الإسلامي للبحوث,ط١ ,١٩٨٦ .

٣٧. العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، ١٩٨٥، ج١.

٣٨. القرآن الكريم.

٣٩. القرماني (أبو العباس أحمد حلبي الدمشقي القرماني): أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق محمد أمين، بغداد، ١٢٧٢ هـ.

٤٠. القلقشندي(أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الانشاء, تح محمد حسين شمس الدين, بيروت, دار الكتب العلمية, ط١ ,١٩٨٧ ، ج٤.

٤١. الكاتب(الشافع ين علي): حسن المناقب السرية, تح عبد العزيز خويطر, الرياض, ١٩٧٦.

٤٢. الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج٢.

٤٣. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر, دار الفكر, بيروت, ١٩٨٠.

٤٤. المقدسي: أحسن القاسيم, دار الرشيد, بغداد, ١٩٧٠.

٤٥. المقريزي(أحمد بن علي):

- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تعليق ياسر سيد الصالحين , مكتبة الآداب

القاهرة, د.ت .

- المـواعظ والاعتبـار المعـروف بـالخطط المقريزيــة، بيـروت, دار صادر,١٩٥٠ ج٢.
- المقريزي, الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك, الهيئة المصرية للكتاب,القاهرة, ١٩٥٦ .

٤٦. المنصوري (بيبرس): التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربية، القاهرة، ط١، د. ت.

٤٧. الموصلي (ابن دانيال): طيف الخيال، دار الكتب المصرية, القاهرة, دت.

٤٨. النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الإسلام، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣، ج٢٩.

المراجع العربية

١.
الأنصاري (رؤوف): عمارة المساجد، دار الينبوع للطباعة، د. ت، ط١.

٢. اسماعيل (شفيق): حقيقة المماليك، دمشق، ط١، ٢٠٠١.

٣. الإيبش (أحمد)– الشهابي (قتيبة): دمشق الشام في نصوص الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨، ج٢.

٤. حتي(فيليب)- جرجي (ادوارد): تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط٨، ١٩٩٠.

٥. الحجي(حياة ناصر): أحوال العامة في حكم المماليك , ط١, الكويت, ١٩٨٤.

٦. حسن(ابراهيم حسن): التاريخ الإسلامي, القاهرة, ١٩٨٩.

٧. حطيط (أحمد): الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية, القاهرة, ١٩٨٦.

٨. حمادة (محمد ماهر): الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٣.

٩. الخطيب (ابراهيم): تاريخ المغول والمماليك، دار شيرين، عمان، ١٩٩٣.

١٠. دائرة المعارف, بإدارة فؤاد أفرام البستاني, المطبعة الكاثوليكية, بيروت, ١٩٨٠.

١١. دهمان (محمد أحمد): معجم الألفاظ التاريخية، دار الفكر, دمشق, ١٩٩١.

١٢. رافق (عبد الكريم): بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط٢، د. ت.

١٣. الرضا(أحمد): معجم متن اللغة, دمشق, ١٩٨٠.

١٤. رمضان (هويدا عبد العظيم): المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب, مصر, ج٢.

١٥. زعرور (ابراهيم): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي, مطبعة الجمهورية, دمشق, ١٩٩٣.

١٦. الزوادي (محمود): أضواء جديدة على محدّدات العقل العمراني الخلدوني، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٣.

١٧. زيادة(محمد مصطفى): بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر, مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة, م٤, ج١, ١٩٣٦.

١٨. زيتون (عادل): تاريخ المماليك، منشورات دمشق، ط٥، ١٩٩٦.

١٩. الزيدي(مفيد): التاريخ الاسلامي (العصر المملوكي)،دار أسامة, عمان, ٢٠٠٣ .

٢٠. الزين (حسن): أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي, القاهرة, ١٩٨٦,

٢١. سلام (محمد زغلول): الأدب في العصر المملوكي في مصر، دار المعارف، ١٩٧٨، ج١.

٢٢. سليم (محمود رزق): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي مصر ,ط٢, ١٩٦٢.

٢٣. شبارو (عصام): المماليك والسلاطين في الشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٤.

٢٤. طرخان (ابراهيم علي): مصر في دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠.

٢٥. طقوش (محمد سهيل): تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، ١٩٩٧، ج١.

٢٦. ظاظا (حسن): الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة, ١٩٧١ ص١٩٤.

٢٧. عاشور (سعيد):

- العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنغلو مصرية، ط٣،١٩٩٤ .

- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧.
- صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى، القاهرة, ١٩٦٨.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك, القاهرة, ١٩٦٢

٢٨. العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، ١٩٦٩.

٢٩. عنان(محمد عبد الله): مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, ١٩٦٤.

٣٠. فرح (مراد): القراؤون والربانيون، القاهرة, ١٩٧٨ .

٣١. فهمي (نعيم زكي): طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

٣٢. قاسم (عبده قاسم):

- اليهود في مصر، القاهرة, ١٩٧٧.
- بعض مظاهر الحياة اليومية, القاهرة, ١٩٦٨
- أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة , دار المعارف, ١٩٧٩.
- عصر سلاطين المماليك، دار الشروق, القاهرة, ١٩٩٤.

٣٣. قاسم (قاسم)– علي (علي): الأيوبيين والمماليك، العين للدراسات، ط٢، ١٩٩٦.

٣٤. كرد علي (محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣.

٣٥. كيال(منير): رمضان وتقاليده بدمشق, دمشق, ط١, ١٩٧٤.

٣٦. ماجد (عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، ١٩٨٢.

٣٧. المطوي (محمد العروسي): السلطنة الحقيقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.

٣٨. مكي(محمد كاظم): المدخل إلى حضارة العصر العباسي, دار الزهراء, بيروت, ١٩٨٨.

٣٩. مناف (محمد عبد الله): مؤرخو مصر الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٩.

٤٠. المنجد(صلاح الدين): مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين, دار الكتاب الجديد, بيروت, ١٩٦٧.

٤١. النباهين (علي سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر، ط١، ١٩٨١.

٤٢. نعيسة(يوسف): مجتمع مدينة دمشق, دار طلاس, دمشق, ط١, ١٩٨٦,ج ٢.

٤٣. أحمد (عبد الرازق): الرنوك في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف, القاهرة, ١٩٩١.

المراجع المعربة

١. سيمينوفا (ل): صلاح الدين (المماليك في مصر)، ترجمة حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨،.

٢. إيفانوف (نيقولاي): الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨.

٣. التطيلي(بنيامين): رحلة بنيامين البطيلي، بغداد, ١٣٤٨هـ.

٤. زامبارو: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي حسن، حسن محمود، القاهرة، ١٩٩٢، ج١.

٥. سوفاجيه (جان): دمشق الشام، تعريب فؤاد أفرم البستاني، تحقيق أكرم العلبي، ط١، ١٩٨٩.

٦. القيروز(أبادي): القاموس المحيط, بيروت, ١٩٦٠.

٧. كراتشكوفسكي(إغناتي يوليانوفيتس): تاريخ الادب الجغرافي العربي, ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم, لجنة التأليف والنشر, القاهرة, ١٩٦٥.

٨. متز(ادم): الحضارة الاسلامية, دار الفكر, بيروت, ١٩٩٠, ج٢.

المراجع الأجنبية

١. Abd al – Razzaq Ahmad, la femme au temps Mamluks, Paris, 1995.

٢. André Clot
− L'Empire des esclaves ,1969.
- L'Egypt des mamluks, 1989.

٣. Atiya (A.S) The Crusades in The Middle Ager (London 1938).

٤. Becher G., Le Ghashija, comme embléme dela Royant'c, Palermo. 1910.

٥. Catherine Mayeur Joauen, gens de la maison et mouleds d'Egypte,1991.

٦. Demombynes G, Là Syria A l'époque des mamloukes,Paris .

٧. Dopp. L'Egypte au commencement du quanzieme siècle,1975.

٨. Historiens orientaux des croisades. 5 Tomes Paris, 1872- 1906.

٩. Ibn Kathir: Historica Arabica. II. 1955.

١٠. J. C. Garcin:
- Le proche oriente à L'épouque mamluke,1987
-Le système mamluk et le Blocage de la société mamluk,1990.

١١. J.oinvill, the life of saint Louis, transl by M.R.B.Shaw, penguin 1975.

١٢. Jomier. Jacques, le mahmal et la caravane egyptienne des pèlerins de la Mecque (XII- XX siècles) 1988.

١٣. Kramers (J. H). S V, ALNil. El, T VIII ,1983.

١٤. Levy (R). SV. Nawruz, El. TVII, London, 1996.

١٥. Popper W, History of Egypt, 1382- 1469, California, 1909- 1933

١٦. Rabie, The financial system of Egypte Oxford university press 1972.

١٧. Robert Hillenbrand Isamic Art and Architecure, 1991, thamas and Husdson LTd, London, printed in Slovenia.

١٨. Runciman;A History of the crusades, 3 vols, Cambridge, 1957 .

١٩. Wiet.G; L. Egypte Arabe, Paris, 1937

.